نحو تأصيل الفكر الإسلامي

[3]

القرآن
وأزمة التدبر

د. محمد السعيد مشتهري

الكتـــاب: القرآن وأزمة التدبر

المؤلـف : محمد السعيد مشتهري

الطبعـة : الأولى . القاهرة 2010

الناشــر: دار الفكر الإسلامي

رقم الإيـداع: 2010/4453

الترقيم الدولي: 8-78-5378-977

Π

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [102]
وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ
مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [103]
وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ
وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [104] وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [105] يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [106] وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ
اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [107] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ [108]

ω

[آل عمران102–108]

مقدمة

لقد بعث الله تعالى رسوله محمدا، عليه السلام، برسالته الخاتمة، تدعو الناس إلى تفعيل آليات عمل قلوبهم، وإلى تدبر رسالة الله إليهم، للوقوف على حقيقة ما تحمله من "آية قرآنية"، جاءت بالهدى ودين الحق لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

ولقد أنزل الله تعالى القرآن الحكيم على قلب رسوله محمد، عليه السلام، إعلانا عن بداية عصر جديد، عصر الرسالة الإلهية العالمية التي تحمل آية صدقها في ذاتها والممتدة العطاء إلى يوم الدين.

وإن مجيء "الآية القرآنية" رسالة عالمية، يجعلها في موقع الحاكم لا المحكوم فهي التي تهدي الناس، على مر العصور، إلى صراط ربهم المستقيم.

إنها تأخذ بأيديهم نحو المستقبل، وعلى الناس أن يتبعوها، وألا يتركوها ويرجعوا إلى الماضي يستقون من معاصريه فهمهم لنصوصها!!

لقد جاءت "الآية القرآنية" تدعو الناس جميعا إلى تفعيل نصوصها، واستخراج عطائها المكنون، حسب إمكانيات كل عصر العلمية والمعرفية والثقافية. جاءت "الآية القرآنية" تدعو الناس إلى تفعيل آليات عمل القلب: آليات التدبر والتعقل والتفكر والنظر..، لتقيم منظومة العلم على أساس الحجة والبرهان.

لذلك فإن دعوى أن الآيات القرآنية، قد تم تفسيرها، وتوثيقها في الكتب، فلا يمكن إضفاء معان أو عطاءات جديدة على ما دونه السلف، من قرون مضت..، ادعاء لا يوصف بأقل من أنه غير رشيد، ويكمن عدم رشده في عدم فهمه، أو جهله، بطبيعة عمل هذه "الآية القرآنية" التي جاءت تخاطب، ليس فقط العامة من الناس، وإنما قوى العلم الحاكمة للعالم، على مر العصور، تدعوهم إلى الوقوف على حقيقة التناغم بين الحقائق العلمية ودلائل الوحدانية.

لقد جاءت "الآية القرآنية" تخاطب العالم أجمع، بإمكاناته، وبما يملكه من قوى، في مختلف المجالات، وتأمر المسلمين الذين آمنوا برسول الله محمد عليه السلام، وبسنته النبوية، أن يعدوا ما استطاعوا من قوة وإمكانات، ليصلوا إلى مستوى الوعي الحضاري العالمي الذي يمكنهم من إقامة الشهادة على العالمين، على وجهها الصحيح.

فهل يكفي أن توجه مناهج وبرامج الدعوة الإسلامية، إلى المسلمين فقط، على منابر الفرق والمذاهب المختلفة، تدعوهم إلى العمل بأحكام العبادات، والمعاملات وتجيب على أسئلتهم..، وتفسر لهم رؤاهم، وتتصارع حول قضايا مثل شرعية النقاب وعذاب القبر وزراعة الأعضاء..، متخذة أمهات كتب أئمة السلف، التي دونت من قرون مضت مرجعا لها..، والعالم من حولهم يتحداهم أن يظهروا فاعلية هذه "الآية القرآنية"، التي يدعون أنها جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور؟!

وهل يعفيهم تغير المواقع، حيث أصبح العالم اليوم يعيش في النور [نور الدنيا] وهم يعيشون في ظلامها..، من مسئوليتهم في الشهادة على الناس، ومن ضرورة التحرك نحو التغيير الجذري، للنهوض من أزمتهم؟!

إن الإشكالية ليست في هجرهم القرآن، الذي يتلى على العالمين ليل نهار، وإنما الإشكالية الحقيقة في هجر "الآية القرآنية" وعدم تفعيلها، كما أمرهم الله تعالى.

إن القضية هنا قضية تفهم للدور الذي جاءت "الآية القرآنية" لتقوم به. إنها قضية تدبر، وفهم لطبيعة العلاقة بين "الآية" والمعاصرين لها. إن "أزمة التدبر" لكتاب الله تعالى، حقيقة يشهد لها حال المسلمين وعلمائهم، والتي كانت سببا في كل ما واجهه المسلمون من تحديات وأزمات، ويواجهونه إلى يومنا هذا.

لقد حرمت "أزمة التدبر" الناس من نور عطاء "الآية القرآنية"، ومن فقه عصري يقوم على التفاعل بين نصوصها والمنظومة المعرفية العالمية، والسبب: أن معظم المسلمين هجروها، وراحوا يتبعون منظومة التراث الديني، والتراكم الفقهي..، التي شقت طريقها عبر العصور، وأصبحت تأخذ بينهم قدسية النص الإلهي.

لذلك فإن الذين يفكرون في إقامة دين الله في الأرض، وتطبيق شريعته..، دون أن يؤهلوا تأهيلا علميا يحصلون عليه، من مدرسة "تدبر القرآن"، هؤلاء لن يقيموا في حقيقة الأمر شريعة الله تعالى، وإنما سيقيمون شريعة تفرقهم، ومذاهبهم المختلفة!!

فهل فكروا، وتعقلوا، كيف سيواجهون التحديات العالمية إذا حكموا البلاد..، وكيف سيتفاعلون مع النظام الاقتصادي، والسوق العالمي الموحد، الأمر الذي يستلزم فهما وفقها جديدا يستطيع أن يتعامل مع هذا الواقع العلمي، والتكنولوجي الجديد؟!

لقد كانت الأمة الإسلامية في عصر الرسالة وعصر الخلافة الراشدة، وقبل ظهور الفرق والمذاهب المختلفة، أمة واحدة، ذات توجه ديني واحد، وذات مركزية عالمية

واحدة، تطبق شريعة الله، بأسلوب وصيغة واحدة..، لأنها كانت أمة "تدبر" لكتاب الله.

فهل يجتمع علماء الفرق والمذاهب المختلفة، حول "الآية القرآنية"، ويتفاعلون معها بتدبر وفهم واع لمكانتها ودورها في هداية الناس إلى صراط ربهم المستقيم ليقيموا فقها قرآنيا عصريا، يثبت للعالم أجمع، أن هذا القرآن، يحمل الآية الدالة على أن محمدا رسول الله، وأنه المنهج الذي سيخرجهم من أزماتهم، وسيواجه تحدياتهم بحكمة وسلام؟!

إنه عمل يتعلق بمصير أمة تخلت عن مسئوليتها وشهادتها على الناس، ولا نجاة لأفرادها، إلا إذا تحملوا مسئولية الفهم الواعي لآيات الذكر الحكيم، على أساس منهج "التدبر" القرآني، الذي أمر الله تعالى الناس جميعا به، وتفاعله مع واقعهم المعرفي العالمي، الذي جاءت "الآية القرآنية" تخاطبه وتحاوره.

إن هذه الدراسة ستلقي بعض الضوء على كيفية الإفادة من عطاء "الآية القرآنية" وعلى خصائص هذه "الآية"، التي تفردت بها عن غيرها من آيات الرسل السابقين، مع ضرب بعض الأمثلة لبيان موقف المسلمين من "أزمة التدبر".

وكان من الضروري أن أبدأ هذه الدراسة بمبحث عن حجية الدين الإلهي والصعوبات التي واجهت بعض الرسل عند إقامتها بين الناس.

وقد يرى القارئ الكريم أن هذا المبحث كان من المناسب أن يكون مكانه بين صفحات الدراسة السابقة "فتنة الآبائية"، ولكني رأيت أن موضوعها يصلح أن يكون مقدمة تاريخية، لبيان الدور الذي يلعبه الشيطان وهوى النفس، في صد الناس عن تفعيل دين الله تعالى في واقع حياتهم.

حجية الدين الإلهي

خلق الله تعالى الإنسان بنفس تقبل النقيضين، الحق والباطل، الخير والشر، الإيمان والكفر، وجعل توجهها نحو أي من النقيضين يقوم على عدة عوامل أهمها: طبيعة البيئة التي يتربى فيها الإنسان، وفاعلية فطرته الإيمانية، التي خلقه الله بها، وتفعيله لآليات عمل قلبه، ومدى تمكن فتنة [الآبائية] وإغواء الشيطان من نفسه.

فإذا تربت النفس في بيئة إيمانية، تساعد الإنسان على تفعيل فطرته وآليات عمل قلبه، والوقوف على دلائل الوحدانية..، فإنها ستقبل دعوة الرسل بسهولة ويسر. أما إذا تربى الإنسان حسب هواه فقبل عضويته في منظومة [الآبائية] بغير علم وسلم نفسه للإغواء الشيطاني، فإنه لن يقبل دعوة الرسل.

وفي الحالين، فإن الحد الفاصل، بين الإيمان الوراثي، والإيمان الحق، هو بلوغ الإنسان النكاح وإدراك رشده، حيث يتحمل الإنسان مسئوليته كاملة أمام الله، فلا عذر يدفعه للإعراض عن دعوة الرسل، وعدم اتباع الحق المنزل من الله تعالى، ولكن عليه أن ينتزع نفسه من أسر [الآبائية] ليستطيع أن يقف على حجية الدين الإلهي واجب الاتباع، وسط هذا الكم الهائل من الموروثات الدينية التي يولد الإنسان بداخلها.

فتعالوا نعرف كيف عالجت "الآية القرآنية" موقف الأنبياء من هذه الإشكالية.

إن أول الطريق هو معرفة دور الشيطان الرجيم في إخراج أبينا آدم وزوجه من الجنة والأمر الإلهي الذي صدر في هذا السياق، والذي يجب على بني آدم اتباعه، حماية لهم من الوقوع في فتنة الإغواء الشيطاني.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [38] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [39] البقرة

ونلاحظ أن الله تعالى وصف هذا المنهج، واجب الاتباع، بـ "الهدى": "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى"، فالله تعالى لا ينزل على رسله إلا "الهدى"، وما على الناس إلا اتباعه: "فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ"، ولأن الله تعالى أمر الناس باتباع "الهدى"، فقد يسر لهم الطريق إليه.

لذلك بين الله طبيعة وحدود هذا المنهج الهادي إلى صراطه المستقيم، فقال بعدها:

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا". فالذي يريد أن يتعرف "هدى" الله لا مرجعية له، ولا طريق أمامه إلا "كتاب الله"، الذي حمله الرسل للناس.

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [35] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [36] الأعراف

إن سياق الآيات، يبين أن الدين الإلهي، يستمد حجيته من الآيات التي أيد الله تعالى بها رسله، وهي المتناغمة مع الآيات الكونية، فتدبر:

"يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي"

فدين الله تعالى لا يقوم على غير الآيات الإلهية، وتفاعلها مع "منظومة التواصل المعرفي"، وما عدا ذلك، فهو افتراء على الله تعالى.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنْ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ [37] الأعراف

إن افتراء الكذب على الله وتوريث الأبناء مصادر تشريعية ما أنزل بها من سلطان أمر جد خطير..، ذلك أن المكذبين بآيات الله ليسوا هم فقط الذين ينكرونها ويكفرون بها..، وإنما هم أيضا الذين اتبعوا آباءهم بغير علم، وقلدوهم تقليدا أعمى!! والمصيبة حقا، أنهم لن يقفوا على حقيقة كفرهم بالله إلا في يوم القيامة، ذلك اليوم الذي سيتبرأ فيه التابعون من المتبوعين، الذين أضلوهم السبيل، والمتبوعون من التابعين.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنْ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [38] الأعراف

إن "النار" هي الجزاء العادل، لمن يقيم تدينه، ملة وشريعة، على إيمانه الوراثي الباطل، ولا يلتفت إلى ما أنعم الله تعالى به عليه من فطرة التوحيد، وآليات التدبر

والتفكر والتعقل والنظر..، التي لو قام بتفعيلها لهدي إلى صراط ربه المستقيم.

لقد نشرت فتنة [الآبائية] الكفر والشرك بالله تعالى، والظلم والإفساد في الأرض على مرّ الرسالات، فكيف لا يقف المرء مع نفسه وقفة يعلم بها حجية إيمانه الوراثي ويعرف إلى أين يسير!!

لقد عبد قوم نوح سادتهم وكبراءهم، وجعلوهم آلهة، ونحتوا لهم من الجبال التماثيل ليعكفوا على عبادتها، ليلا ونهارا، فهل نفعتهم دعوة نوح؟!

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً [5] فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً [6]

إن من دهاء الشيطان، ومكره، أن جعل لإغوائه أبوابا كثيرة، يضل بها عن سبيل الله. فها هو يأمر أتباعه، من قوم نوح، أن يُغلقوا وسائل الإدراك، وآليات عمل القلب من تدبر، وتفكر، وتعقل، ونظر..، ليظلوا في معزل عن الدين الحق، الذي جاء به نوح عليه السلام.

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً [7] ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً [8] ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً [9] نوح

وكذلك كان فعل قوم رسول الله محمد، عليه السلام، حين قالوا:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [26] فصلت

وهذه سنة الشيطان وأتباعه، على مر العصور، فتراهم يقولون:

لا تسمع لفلان، لا تقرأ لفلان، لا تجلس مع فلان..، لا تشاهد برنامج فلان...!!

إنهم يخشون من إقامة الحجة على بطلان مذاهبهم، وإثبات حجية الدين الحق واجب الاتباع. لذلك كان من الطبيعي ألا ينفع معهم ترغيب، بعد أن نجح الشيطان في تغييب آليات عمل قلوبهم:

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً [10] يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً [11] وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً [12] نوح

ولم تنفعهم دلائل الوحدانية، في الآفاق والأنفس، الموصلة إلى التوحيد الخالص:

مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً [13] وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً [14]

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً [15] وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً [16]

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتاً [17] ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً [18]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ بِسَاطاً [19] لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً [20] نوح

فهل استطاعت هذه الآيات، وهذه الحجج، أن تلين قلوبا أفسدها اتباع الآباء بغير علم؟! الحقيقة أنهم أعطوا هذه البراهين ظهورهم، واتبعوا أهواءهم:

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً [21] نوح

لقد تواصلت حلقات النبوات والرسالات، بعد نوح عليه السلام، من ذريته، ومن ذرية إبراهيم عليهم السلام. وكان إبراهيم ممن ناصروا دعوة نوح والتزموا منهجه.

سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ [79] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [80] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ [81] ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ [82] وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ [83] إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [84] الصافات

لقد ذكر الله تعالى أن إبراهيم، عليه السلام، من شيعة نوح، من باب الثناء عليه وبيان مشاركته في صفاته.

وإن المتدبر لكتاب الله، ولقصة إبراهيم، عليه السلام، مع قومه، والمتتبع لقضية عبادة التماثيل والأصنام..، يجد أن الآلهة التي تعبد من دون الله تعالى، ليست فقط تلك الأحجار أو الأصنام التي يراها الناس أمامهم، فهذه ما هي إلا رموز لآلهة حقيقيين، قد أعطوا أنفسهم حق التشريع، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى، بسبب هوى النفس، وفتنة [الآبائية] والوحي الشيطاني.

فعندما يأتي السياق القرآني بذكر هذه الآلهة بضمير غير العاقل، فيكون الحديث عن

هذه الرموز المشاهدة، التي يعكف أمامها المشركون. أما إذا ذكرت بضمير العاقل فهذا يعني أن الحديث عن الآلهة الحقيقيين.

فلنتدبر ماذا كان موقف قوم إبراهيم، عليه السلام، من آلهتهم، وبماذا رد عليهم؟!

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ [69] إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ [70] قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ [71] قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ [72] أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ [73] قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [74]

قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ [75] أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ [76] فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ [77] الشعراء

تدبر قولهم: "نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ"، بوصفها معبودات غير عاقلة.

أما إبراهيم، عليه السلام، الذي يعرف حقيقة هذه الأصنام، فقد جاء رده من منطلق حقيقة هذه الرموز، التي تمثل المعبودات العاقلة، فقال: "هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ"، ولم يقل "تسمعكم" وقال: "أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ"، ولم يقل "تنفعكم".

وفي سياق آخر يقول الله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [51] إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ [52] قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ [53] قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [54]

قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللاَّعِبِينَ [55] قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ [56] الأنبياء

لقد استخدم إبراهيم، عليه السلام، فعل [كُنتُمْ] مؤكدا بالضمير البارز [أنتم] وحرف الظرفية [فِي] لبيان تمكنهم من الضلال، وانغماسهم في دينهم الباطل، بلا أدنى شبهة ثم أكد وصفه لهذا الضلال بقوله [مُبِينٍ]، في الوقت الذي تبرأ فيه من ضلالهم بقوله "وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ".

إن [الآبائية] الضالة، تجعل كل موروث ديني معبودا من دون الله تعالى!!

لقد ورث قوم إبراهيم، عبادة الأصنام، وعكفوا على عبادتها: "مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ"، و"العكوف" يعني الملازمة الدائمة المقترنة بالتقديس والاحترام.

فها هم قوم إبراهيم، يعبدون آلهة من دون الله، وينحتون لها التماثيل، ويعكفون على عبادتها، ملازمين لها، اتباعا لآبائهم: "قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ"، فبين لهم إبراهيم عليه السلام، أن كل ما يُعبد من دون الله تعالى، ضلال: "قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ".

هذه هي ملة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

إن فتنة [الآبائية] كما جعلت الأبناء يعكفون على عبادة الأصنام، جعلتهم أيضا يرثون عن آبائهم تراثا دينيا، يعكفون على دراسته، وتقديسه، والدعوة إليه.

لذلك نجد أن حجج الآبائيين دائما واهية، لا يملكون برهانا أو منطقا يدافعون به عن فساد معتقداتهم..، فكل ما يستطيعون قوله، هو إلقاء مسئولية الباطل الذي هم عليه على عاتق آبائهم: "قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ".

وهكذا كانت فتنة أتباع الرسل، فعندما يتفرقون في الدين، نجد علماءهم ودعاتهم يدافعون عن مذهب أئمتهم، بدعوى أنهم هكذا وجدوا سلفهم يفعلون!!

ولمّا كان الدين الإلهي لا تثبت حجيته بشهادات الأموات، وإنما بالبرهان الإلهي فقد رد إبراهيم، عليه السلام، على قومه بما ثبت عنده على وجه اليقين، من أنهم ضلوا الطريق إلى الله تعالى..، فقال: "لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ".

ثم انظر كيف يؤثر التقليد الأعمى على القلوب، فلا ترى الحق المبصر أمامها قالوا: "أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ اللاَّعِبِينَ"؟!!

لقد بين الله تعالى، على لسان إبراهيم، عليه السلام، أن حق التشريع لا يكون إلا للذي خلق وحده، فالذي يخلق هو الذي يُشرع ويهدي:

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [78] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ [79] وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ [80] وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ [81]

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [82] الشعراء

ومن منطلق إقامة الحجة على من يشرع من دون الله بأن الذي خلق هو الذي يهدي ويشرع، دار هذا الحوار بين إبراهيم، عليه السلام، وبين الذي حاجه في ربه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [258] البقرة

إن الذين ينسبون إلى دين الله تعالى، مصادر تشريعية ما أنزل الله بها من سلطان هؤلاء جعلوا من أنفسهم آلهة، يشاركون الله في حكمه.

إن القضية ليست في أن هذا وُلد في بيئة مسلمة فورث الإسلام، وذاك ولد في بيئة كافرة فورث الكفر، وإنما القضية في كيف يعرف الإنسان، بعد بلوغه الرشد، ما إذا كان دين آبائه هو الدين الإلهي الحق واجب الاتباع أم لا؟! وهذا لا يكون إلا بالتعرف على صفات من له وحده حق التشريع، في هذا الوجود:

"فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ"

"فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"

إن قضية الشرك بالله، ليست في طقوس تؤدى لصنم أو وثن، فهذه مجرد رموز وإنما في عبادة الآلهة التي ترمز لها تلك الأنصام، والتي هي نتيجة طبيعية لعدم تفعيل الإنسان لآليات عمل قلبه من تدبر، وتفكر، وتعقل، ونظر..، للوقوف على دلائل الوحدانية، والفرق بين الخالق [الحاكم والمشرع] والمخلوق [المحكوم المتبع لشريعة الخالق] ثم إقامة البرهان على صحة الكتاب الإلهي الذي تُستقى منه الشريعة الإلهية.

أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [191] وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ [192] وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ [193] إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [194] أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ [195] الأعراف

ولقد جاء رسول الله الخاتم، محمد، عليه السلام، ليؤكد حقيقة التوحيد، ويعلن ولاءه الكامل لله رب العالمين، فتدبر ماذا قال بعد الآيات السابقة:

إِنَّ وَلِيِّي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ [196] الأعراف

إن الأدلة والبراهين المثبتة لحجية الدين الإلهي لا تأتي من الإيمان الوراثي، وإنما من تفعيل آليات التدبر والتفكر والتعقل والنظر..، وهذا ما بينه إبراهيم عليه السلام عندما قال لقومه:

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ [95] وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ [96] الصافات

ومع اعتراف قوم إبراهيم بفساد منطقهم، وضعف حجتهم، فإن تشرب قلوبهم حب السلف، إلى حد التقديس، جعلهم يطالبون بتحريقه، انتصارا لآلهتهم، التي ما هي إلا رموز لملوكهم وسادتهم، والذين هم سدنتها المنتفعون من كونها آلهة.

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ [68] قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ [69] وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ [70] الأنبياء

ولقد أقام هود، عليه السلام، الحجة على فساد دين وملة قومه، وبين لهم الطريق إلى ما فيه سعادتهم وإنقاذهم من عذاب الجحيم، ولكنهم كذبوه، ورفضوا دعوته وتمسكوا بدين آبائهم.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ [70] الأعراف

ولبيان زيادة إنكار قوم هود عليه دعوته، استخدموا أسلوب الاستفهام التهكمي: "قَالُوا أَجِئْتَنَا" الدال على استهزائهم بدعوة التوحيد، "لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ".

واستخدموا فعل [كان] لبيان أن الذي أنكره هود عليهم هو دين سلفهم المقدس، ثم بيّنوا أن هذا الدين مازال متواصل الحلقات دون نكير من أحد، فعبروا عن ذلك بقولهم "مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا"!!

وهكذا حال كل من سلّم قلبه لهواه، ولإغواء الشيطان..، يقول: "أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ"؟! وذلك كما يقول أعضاء منظومة [الآبائية] اليوم:

وهل يكفي كتاب الله وحده؟!

ولقد بيّن هود، عليه السلام، لقومه أن هذه الآلهة المدعاة ما هي إلا أصنام من عمل آبائهم، وحسب أهوائهم..، ما أنزل الله بها من سلطان.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنتَظِرِينَ [71] الأعراف

انظر، وتدبر حجم إشكالية الاتباع بغير علم، متصل الحلقات من لدن نوح عليه السلام، لتعلم أن القاعدة التي قامت عليها حجية الدين الإلهي هي قاعدة الدليل والحجة والبرهان..، والتي هي طوق النجاة الذي ينقذ الإنسان من الوقوع فريسة هواه، أو وحي الشيطان، فيتبع ما لم ينزل الله به سلطانا، فتدبر، مرة أخرى:

"أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ"

لقد بيّن هود عليه السلام، لقومه أنهم ما يعبدون من دون الله إلا أسماء، لا حول لها ولا قوة، وهذا تماما ما فعله قوم رسول الله محمد عليه السلام، عندما عبدوا اللات والعزى، ومناة، فقال لهم:

إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى [23] النجم

إن "السلطان" في قوله تعالى، "مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ" هو الحجة الإلهية التي لا تجد آليات عمل القلب أمامها إلا التسليم والخضوع. فهذه الأسماء من ميراث الآباء الذين انتحلوا الشّرك واتّخذوه ديناً وعلّموه أبناءهم!! وهذا دليل على تواصل اتباع الظن وما تهوى الأنفس.

ولا يشترط أن يرى كل إنسان هذا "السلطان" البيّن المُبْصر، لأن الرؤية للبصيرة قبل أن تكون للبصر. فها هم قوم هود لا يرون حجية الدين [البينة] التي جاء بها، ويتهمونه بالجنون!!

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ [53] إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [54] مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ [55] هود

إنها نفس الخطة الشيطانية متصلة الحلقات بفتنة وأزمة [الآبائية] في مواجهة دعوة الرسل. فها هم قوم هود يؤمنون بحجية دين وملة آبائهم [الآلهة] ولا يقبلون حجية دين الله [البيّنة] الذي جاء به هود، عليه السلام!!

أليست هذه هي سنة الصراع بين الحق والباطل على مرّ الرسالات؟! ألا يطابق قولهم "إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ" ما يواجهه دعاة الحق، على مر العصور عندما تصيبهم مصيبة يفرح بها أعداؤهم، ويعتبرونها دليلا على عدم رضا الله وغضبه على هؤلاء الدعاة المصلحين؟! لذلك كان رد هود صريحا وواضحا:

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [56] فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [57] هود

فلماذا يُقابل أعضاء منظومة [الآبائية] دين الله دائما بالتكذيب والاتهامات، مع أن حجته بيّنة، مبصرة، كالشمس؟!

إن قوم هود لم يكتفوا باتهامه بالجنون، وإنما أضافوا إلى ذلك السفه والكذب.

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ [66] قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [67] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ [68] الأعراف

لقد أعمت منظومة [الآبائية] قلوب أعضائها، فرأوا الدين الحق [والحجة] الإلهية سفاهة، ورأوا النصيحة المخلصة كذبا.

وها هي حلقات الاستكبار والطغيان تتواصل وتتفاعل وتقوى، داخل هذا الموروث الديني الباطل، في مواجهة حجية الدين الإلهي.

إن الدين الإلهي، لم يقم في يوم من الأيام، من لدن آدم وحتى خاتم النبيين محمد عليهم السلام جميعا، إلا على الحجة والدليل والبرهان. ولقد كانت الحجة كتابا إلهيا وآية حسية، دالة على صدق الله فيما أنزل، وصدق رسوله فيما بلغ. ثم جاء رسول الله الخاتم محمد، عليه السلام، برسالة تحمل "آية قرآنية"، حجة قائمة بين الناس إلى يوم الدين.

فلا "نبوة" تحمل رسالة جديدة بعد هذه "الآية القرآنية"، ولن تكون هناك "بيّنة" غيرها. لذلك جاءت نصوصها تشهد بذاتها، وبتفاعلها مع الآيات الكونية، على حجيتها، وأنها حق من عند الله تعالى.

إن حجية دين الله لا تقوم إلا على البينات، فلا شريعة دون بيّنة وبرهان إلهي:

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ [9] إبراهيم

ولقد وقفت فتنة [الآبائية] أمام دعوة جميع الرسل، وكانت سنة التكذيب والاتهامات واحدة: "فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ"، وقالوا: "وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ" والأعجب من ذلك أنهم لا يقبلون أن يكون الدين الإلهي عن طريق بشر مثلهم!!

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً [94] قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً [95] الإسراء

إن الله تعالى لو أظهر المَلَك على صورة بشر لكذبوه ولما تحقق طلبهم ملكا رسولا!! إنهم في حقيقة الأمر، لا يريدون التوحيد الخالص لله تعالى، لا يريدون كتاب الله وحده لا يريدون الحجة [البيّنة] وحدها إنهم يريدون مع ذلك تراث آبائهم، يريدون دينا حسب أهوائهم!!

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [10] إبراهيم

تدبر قولهم "فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ"!! إنه هوى النفس المريضة، وفتنة [الآبائية] المضلة!! إن قول المكذبين إن الرسل جاءوا ليصدوهم عما كان يعبد [آباؤهم]، وليس ليصدوهم عن [دينهم] يبين أن الدين عندهم هو دين الآباء، وأن قدسية الدين الإلهي عندهم في اتباع سلفهم، الذي يسميه كل فريق منهم بالسلف الصالح!!

ونستنتج من ذلك أن حجية الدين الإلهي لا يمكن أن تلتقي مع حجية تراث السلف إلا إذا أقمنا الدليل على أن هذا التراث، مهما كانت درجة صحة نسبته إلى صاحبه، قد قام على برهان وإذن من الله تعالى، وهو [البينة] فتدبر:

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ [11] وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ [12] إبراهيم

إن قولهم: "إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا"، يبينه قول الرسل: "وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ"، وهذا دليل على أن حجية الشريعة الإلهية تختلف عن الشرائع البشرية.

لذلك فإن حجية "الآية الإلهية" لا علاقة لها بحجية "الرواية البشرية"، فالأساس الذي قامت عليه حجية "الآية الإلهية"، هو أنها تقوم على البرهان والحفظ الإلهي، الذي يستحيل أن يشك فيه صاحب قلب سليم، لذلك عقب الرسل بقولهم:

"وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ"

فالرسل لا يستطيعون إثبات نبوتهم إلا عن طريق هذا السلطان المبين، الآية الدالة على أنهم رسل الله، وإلا لاستطاع آلاف البشر ادعاء النبوة، وكان على الناس تصديقهم!! صحيح أن هناك من ادعوا النبوة، واتبعهم آلاف البشر، ولكن السبب هو:

أن التابعين والمتبوعين كانوا أعضاء في منظومة [الآبائية]، فلا غرابة أن يحدث بينهم ذلك، فقد قبل آباؤهم أن يُنسب إلى الله تعالى "ما لم يأذن به"، فتشربت قلوبهم مسألة "النبوة" كشيء مقدس!!

لقد قبلوا المرويات البشرية المنسوبة إلى الرسل، وأخذوا منها حجية ادعائهم "النبوة" وجعلوا مقامها مقدما على مقام الآية [البيّنة] المثبتة لصدق بلاغ الرسل عن الله، لذلك لم

تعد قلوبهم قادرة على رؤية غير هذه "النبوة" المدعاة.

ولقد جاء صالح عليه السلام، يدعو قومه [ثمود] إلى الإيمان بالله الواحد، فهل قبلوا دعوته؟! وعندما طلبوا منه برهانا يثبت أنه مرسل من عند الله، هل صدّقوه وآمنوا به بعد أن جاءهم بالبرهان والآية الإلهية، الدالة على صدقه؟!

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [73] الأعراف

تدبر قوله تعالى: "قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ"، ثم بيانه لهذه البينة بقوله بعدها: "هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً"..، ومع ذلك قالوا:

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ الْمُسَحَّرِينَ [153] الشعراء

لقد أيد الله تعالى رسوله صالحا بـ [آية] الناقة لتكون هي [البيّنة] على صدق دعوته وأنه رسول رب العالمين. ولكن اختلفت طبيعة هذه الآية عن الآيات الحسية التي أيد بها الرسل، فتدبر:

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ [63] وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ [64] هود

لقد كانت آية صالح أوامر، "شريعة"، إلهية واجبة الاتباع، إن لم يلتزم بها قومه حل بهم العذاب.

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ [27] وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ [28] القمر

والفتنة هنا، فتنة طاعة والتزام، وإسلام الوجه لله تعالى، وكان موضوعها هو الماء الذي امتلكه الملأ من قوم صالح، فمنعوه الناس، واستعبدوهم، وظلموهم بسببه. ولقد جعل الله تعالى للناقة دورا في هذه الآية.

قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ [155] وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ [156] فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ [157] فَأَخَذَهُمْ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [158] الشعراء

إنه عندما يمتلك الطغاة الماء فقد امتلكوا حياة الناس، وهذا ما فعله الملأ من قوم صالح. لذلك كان عليهم أن يدفعوا الثمن من جنس طغيانهم. لقد أطلق الله تعالى الناقة حرة في الأرض، وجعل لها وحدها مصدرا للماء تشرب منه، دون قيد أو شرط: "هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ"، وجعل لثمود مصدرا للماء يشتركون فيه جميعا: "وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ"، وفي أيام معلومات: "وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ".

إن تأييد الله تعالى الرسل بالآيات الحسية، من جنس ما برع فيه القوم، أو اشتهروا به، أو ملكوه..، وكان ذلك لإقامة الحجة على الناس، حتى بعث الله تعالى رسوله الخاتم محمدا، عليه السلام، بـ "آيته القرآنية"، ليبدأ عصر إقامة حجية الدين الإلهي على أساس "الآية"، التي لا فاعلية لها، دون إعمال آليات التدبر، والتفكر، والتعقل.. آليات عمل القلب، التي جاءت "الآية" تخاطبها.

فماذا كان موقف ثمود من "آية الناقة" التي أمروا ألا يمسوها بسوء؟! ها هي الناقة تتحرك بينهم، ليل نهار، دون أن يمسهم سوء، وطالما أنهم ملتزمون بأوامر الله، فهم في مأمن من العذاب.

إن فتنة الالتزام بالمحافظة على ناقة صالح، كفتنة الالتزام بـ "الآية القرآنية"، غير أنها ليست مدونة في الكتب، وإنما فتنة تتحرك بين الناس. لقد عرفت الناقة دورها والتزمت أوامر ربها، وكانت تذهب إلى شربها، وتعود، كآية إلهية، تحمل الإنذار والعذاب لمن عصاه، فتدبر:

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً [59] الإسراء

لقد وصف الله تعالى الناقة بأنها "مُبْصِرَةً"، لأنها تتحرك بين الناس، حاملة معها الحجة والبرهان [البيّن]، الذي يدعوهم إلى التوحيد الخالص لله عز وجل، ويأمرهم بطاعة رسول الله صالح، عليه السلام.

ولكن الملأ، من قوم صالح، أصروا على الاستكبار، وظلموا العباد، واحتكروا الماء ولم يستغفروا ربهم، ولم يتوبوا إليه.

إن "آية الناقة"، مثلها مثل سائر الآيات الدالة على صدق "النبوة"، تدعو الناس ليفتحوا قلوبهم، ويستجيبوا لدعوة الرسل. وهذا ما لم يقبله قوم صالح، ولا قبله المكذبون من قوم رسول الله محمد، عليهما السلام. لقد أعدوا العدة للقضاء على هذه "الآية" ليبقى لهم تراث الآباء، بمروياته المقدسة، حاكما على حياة الناس.

إنه المنطق الذي واجه به المكذبون دعوة الرسل، على مرّ الرسالات، وهو نفسه منطق المؤسسات الدينية التي وقفت عقبة أمام المصلحين على مر العصور، ومازالت إلى يومنا هذا..، في عصر المعلومات، والانفتاح الفضائي، والتقنيات الرقمية!!

فماذا يعنى أن تعصى ثمود رسول ربها وتقرر عقر الناقة؟! هذا يعني أنها تعلن الحرب على الله تعالى، وعلى جميع رسله..، لأنهم جاءوا جميعا بالآيات البينات.

إن عقر ثمود للناقة عقر للآيات التي سبقتها. وهكذا..، فكل رسول كذبه قومه فكأنهم عقروا آيته، والآيات التي سبقتها.

لقد قامت دعوة جميع الرسل على تذكير الناس بميثاق فطرة التوحيد، وبيان أن للكون سُنَنًا تعمل لصالح الوجود كله، لا تعرف جنسا ولا لونا ولا ملة، من أخذ بها أعطته من النعم ما لا يحصى، ومن لم يأخذ بها تركته للعذاب الأليم!!

وهكذا كان مصير ثمود..، فلم يأخذوا بالسنن، ولم يعتبروا بمصير الأمم السابقة.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ [66]

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ [67] كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ [68] هود

ولقد واجه يوسف عليه السلام، أعضاء منظومة [الآبائية] بالدليل والحجة والبرهان فقال لصاحبي السجن:

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [39]

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [40] يوسف

إنه لا يستقيم هذا الوجود مع وجود أرباب متفرقين..، ولا تستقيم شريعة الله تعالى وهناك من يدعي أنها شريعتان: شريعة "الآية"، وشريعة "الرواية"!! لذلك فليس من دين الله تعالى، الهادي إلى صراطه المستقيم، تراث الأمم الديني، مهما كان قدر ومنزلة أصحابه، ذلك أن حجية الدين الإلهي لا تقوم إلا بإذن وسلطان من الله تعالى:

"إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ"

إنه من الضروري أن نلتفت إلى قول يوسف، عليه السلام، بعد بيان رفضه عبادة الآباء، في صورها المختلفة..، قال: "إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ"، أي أن التحاكم إنما يكون إلى شريعة الله، دون غيرها من شرائع البشر. لذلك عقب بقوله: "أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ" لينتقل من أدلة إثبات انفراد الله تعالى بالألوهية، إلى بيان مقتضى ذلك، وهو وجوب الامتثال لشريعته، التي وصفها الله تعالى بـ "الدِّينُ الْقَيِّمُ" أي الدين الذي قام على الحجة والبرهان الإلهي.

إن كثيرا من الناس لم يسلكوا طريق العلم الموصل إلى حقيقة التوحيد الخالص لذلك قال تعالى: "ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ". إن الناس يظنون أن التوحيد ينتهي عند قول "لا إله إلا الله"، والإيمان بأن الله أحد فرد صمد، ثم لا مانع بعد ذلك أن يشركوا مع كتاب الله مصادر تشريعية أخرى، دون إذن منه عز وجل**!!**

إن ملة التوحيد الخالص لله تعالى هي ملة الحق، الذي لا مجال للشك فيها. إنها ملة إبراهيم، وذريته من الأنبياء والمرسلين. وهذا ما أعلنه يوسف، عليه السلام.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ [38] يوسف

فإذا ذهبنا إلى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون، علمنا كيف تقام الحجة على المكذبين، وكيف تثبت مرجعية الدين الإلهي أمام مرجعيات البشر، المفتراة على الله

تعالى ورسوله.

إن إقامة الحجة على الناس، يجب أن تبدأ بتوجيه نظرهم، إلى ضرورة تفعيل آليات عمل قلوبهم، للوقوف على دلائل الوحدانية.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ [23] قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ [24] الشعراء

فها هو فرعون، يسأل موسى، عليه السلام، عن الإله الذي يعبده، والذي أرسله إليه ليبلغه رسالته. فانظر كيف ردّ موسى على فرعون، وكيف أقام عليه الحجة والبرهان... فهل أبصر فرعون دلائل الوحدانية، ببصيرته لا ببصره؟! وهل انفعل معها وسجد لها؟! أم صده عن ذلك استكباره في الأرض؟! تدبر:

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ [25]

فزاد موسى عليه السلام، دلائل الوحدانية بيانا:

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ [26]

وزاد الفرعون من أدلة كفره واستكباره، تكذيبا وجحودا:

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ [27] الشعراء

فما كان من موسى، عليه السلام، إلا أن بيّن لفرعون أن المجنون الحقيقي هو الذي غُيّبَت عنده آليات التعقل والتفكر والنظر...، الموصلة إلى دلائل الوحدانية:

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ [28] الشعراء

وهنا، وأمام الحجج الإلهية، يهرب أي مكذب من استكمال الحوار، متوعدا مخالفه بالعذاب الأليم، إن لم يتبع تراث ومذهب آبائه:

قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهَاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ [29] الشعراء

وكان لابد من حسم القضية نهائيا، وبدون رجعة، وذلك بالحجة الإلهية [البيّنة] المدعمة لصدق الرسل في بلاغهم عن الله، وهي الآيات الحسية، فقال موسى:

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ [30] قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ [31] فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ [32] وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [33] الشعراء

تدبر قوله: "بِشَيْءٍ مُبِينٍ"، ثم قوله بعدها: "ثُعْبَانٌ مُبِينٌ"، ثم قوله: "بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ" لتعلم أن الحجة لا يمكن أن تكون ظناً، أو رواية بسند إلى الرسول، وإنما هي سلطان مبين.

لقد وضع موسى، عليه السلام، قواعد الحوار العلمي الذي يجب أن يتأسى به كل إنسان يريد أن يتعرف صراط ربه المستقيم، فلا آبائية، ولا مذهبية، ولا مرجعيات دينية إلا بعد إقامة الحجة والبرهان العلمي على صحة نسبة كل ذلك إلى الله تعالى.

وهذا ما فعله موسى، عليه السلام، مع فرعون عندما سأله وأخاه هارون:

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى [49]

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [50] طه

لقد لفت موسى، عليه السلام، نظر فرعون إلى الفرق بين البصر والبصيرة، بين الحجج الإلهية، والحجج الشيطانية، بين العشوائية الدينية الآبائية، والمنهجية العلمية:

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى [51] قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى [52] طه

تدبر سؤال فرعون: "فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى"؟!

إنه نفس السؤال الذي يسأله دائما أهل الباطل لدعاة الحق، على مر الرسالات. يسألون: من سبقكم من علماء السلف في هذا الذي تقولونه؟! من هو إمامك، الذي اتبعته، الذي قال بقولك هذا؟! وهل كل السلف في ضلال إلا أنت؟!

لقد بين موسى عليه السلام، لفرعون وملئه، أن الذي جاءهم به من حجة إلهية هو الحق الذي لا يشك فيه عاقل، وأن الحق غير الباطل، فالباطل دوما زهوق.

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ [78] يونس

إن الفرعون، وملؤه، يؤمنون بأن تراث آبائهم الديني حجة ودين مقدس: "أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا..."، لذلك، يستحيل التنازل عنه أمام دعوة الأنبياء والرسل: "...لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"!!

لقد كان الفرعون، على مرّ العصور، يمثل المرجعية الدينية المزيفة، المرجعية الآبائية، التي اعتاد الشيطان أن يزينها للناس، بعد وفاة الرسل. لقد كان هو الملة والشريعة والمنهج التي زين للناس اتباعها، من دون الله عز وجل.

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [123] الأعراف

تدبر قوله: "آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ". فهذا كان الفرعون، الذي يدعي الألوهية، لا يقبل أن يُطعن في ألوهيته المفتراة، إلا بإذن منه وسلطان، فتدبر: "آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ"؟! وتوعد من يخالف ذلك بالعذاب الأليم:

لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ [124] الأعراف

لقد استهزأ فرعون برسل الله، واتهمهم بالسحر والجنون، وأراد إبادة نسل كل من ليس على دينه وملته:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ [23] إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [24] فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ [25] غافر

لقد أراد فرعون أن يقطع حلقات التواصل الإيماني ليطفئ مصابيح الهدى، ويقتلع المرجعية الإلهية الحقة، عن هذا الوجود البشري..، ليتفرغ الناس لعبادته واتباعه!!

لذلك كان عليه أن يستعين في هذه المهمة بالمستشارين الأقوى والأكثر تأثيرا على الشعوب، المستشار الإعلامي، هامان، والمستشار الاقتصادي، قارون.

ولخطورة هذه القوى وتأثيرها على الشعوب، أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إليهم جميعا:

وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ [39] العنكبوت

لقد كان فرعون يجسد الإرهاب السياسي والعسكري، وكان قارون يمثل الفساد الاقتصادي. أما هامان فقد كان المستشار الإعلامي لفرعون وموضع سره.

وبعد هلاك قوى الفراعنة، انحرف بنو إسرائيل عن صراط الله المستقيم، وأصروا على اتباع ما ورثوه عن آبائهم من شريعة مزيفة كتبوها بأيديهم.

لقد جاء عيسى، عليه السلام، يُعلم بني إسرائيل التوراة والإنجيل، ويعيد لهم ما ضيعوه من أحكام الشريعة.

وكان لابد من أن يحمل عيسى، عليه السلام، من الآيات والبراهين الإلهية، ما يثبت نبوته، وإرساله إلى بني إسرائيل، كي يقيم الحجة عليهم.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ [48]

وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ [49] آل عمران

لقد جاء عيسى، عليه السلام، مصدقا لما بين يديه من التوراة، في عموم الرسالة وأصولها.

وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [50] آل عمران

فهل بعد هذه البراهين والحجج الإلهية أطاع بنو إسرائيل رسول الله عيسى؟!

لقد كذبوه، وكفروا به، حتى اضطر إلى أن يميز من آمنوا بالله، وأعلنوا إسلامهم ونصرتهم له.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [52] رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ [53] آل عمران

واللافت للنظر أن إيمان الحواريين كان بإلهام من الله تعالى، وهذا يعني أن [الآبائية] كانت قد قضت على الجيل الأول من أتباع موسى، عليه السلام، فلم يعد لهم وجود حتى إن عيسى، عليه السلام، لم يجد من يؤمن به إلا هؤلاء الحواريين، وبعد أن ألهمهم الله المبادرة إلى تصديقه.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَننا مُسْلِمُونَ [111] المائدة

ولقد طلب الحواريون من عيسى، عليه السلام، مزيدا من البراهين على صدقه.

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ [112]

قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنْ الشَّاهِدِينَ [113] المائدة

لقد دعا عيسى، عليه السلام، ربه أن ينزل عليهم هذه المائدة، كآية "بيّنة" تقيم الحجة عليهم، فاستجاب له ربه.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ [114] قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنْ الْعَالَمِينَ [115] المائدة

فها هم الحواريون، مع إيمانهم بالله تعالى، ورؤيتهم آياته، ونصرتهم لرسوله يحذرهم الله من الكفر..، وهذا يفرض على كل إنسان، مهما كانت درجة تقواه، ومهما بلغ من الصلاح مبلغه، أن يكون على يقين أن ما يتبعه من دين هو الدين الإلهي.

ثم انحرف أتباع عيسى، عليه السلام، عن ملة التوحيد بعد وفاته، وغالوا في علاقته بالله تعالى، وافتروا على الله الكذب، فجاءت الرسالة الخاتمة تدحض هذه الافتراءات وتبين فساد منطقهم، وذلك ببيان مهم، يحمل في الوقت نفسه تحذيرا لأتباع الرسول الخاتم، محمد، عليه السلام، فتدبر ماذا قال الله بعدها:

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ [116]

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [117] المائدة

تدبر قول عيسى، عليه السلام: "مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ"، ثم قوله بعد ذلك:

"وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ"!!

لقد حرف أهل الكتاب كتبهم، ونسبوا إلى الله ما لم ينزل به من سلطان، كغيرهم من أتباع الرسل السابقين..، ولكن الأخطر من ذلك أن ينسبوا إليه عز وجل، الولد!!

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [91] المؤمنون

ولم يكتفوا بذلك، ولكنهم قالوا إن الله ثالث ثلاثة..، سبحانه وتعالى عما يصفون.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً [171] النساء

لقد بيّن الله تعالى للناس المنهج واجب الاتباع، ليقيموا عليه إسلامهم، ودليل حجية الملة التي يؤمنون بها ويتبعونها.

ويبدأ هذا المنهج بتصحيح العقائد الباطلة: "إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ" وقد ولد، عليه السلام، من غير أب، ليكون ذلك آية للناس "وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ". فمن أين جاءوا بأنه ثالث ثلاثة: "وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ"؟!

"انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ".

وبعد تصحيح المفاهيم الباطلة..، تأتي مرحلة بيان الحق، وإقامة الدليل والبرهان عليه: "إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ"، "سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ"، "لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ". ثم تدبر: "وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً".

إن أصول المنهج العلمي، التي تقوم عليها "حجية الدين الإلهي"، تنطلق من تفعيل "الفطرة الإيمانية" وتناغمها مع دلائل الوحدانية، من خلال تفعيل آليات عمل القلب.

إن [الكلمة] التي ألقاها [الروح] إلى مريم، عليها السلام: "وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ"، ما هي إلا مجرد أسباب وآليات لتنفيذ مشيئة الله تعالى، وأنها لا تُخرج عيسى بن مريم عن بشريته، وكذلك لا تعطي الله تعالى صفة من صفات البشر.

إننا لا نستطيع مطلقا أن نضع في أذهاننا فعلا، أو كلاما، أو تصرفا لله تعالى الخالق، مثل أفعال وكلام وتصرفات عباده المخلوقين. فالله عز وجل يسخر قوى تحمل آليات تفعيل أسمائه الحسنى، وفاعلية الأمر الإلهي "كن فيكون"، ومن هذه القوى "الملائكة"، وعلى رأسهم جبريل عليه السلام.

فعيسى، عليه السلام، إن كان قد ولد من غير أب، فإن ذلك ليكون آية إلهية.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [59] الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ [60] آل عمران

إلا أن ولادته قد مرت بجميع مراحل الخلق والتكوين وهو في بطن أمه، وكانت ولادته طبيعية، كسائر البشر، وهذا ما بينه الله تعالى بقوله:

فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً [22] فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً [23] مريم

لذلك جاء القرآن يحذر من اتخاذ [آية] خلق عيسى عليه السلام، دليلا على ألوهيته أو على أنه ثالث ثلاثة..، تعالى الله عما يصفون.

إن أول كلمة قالها عيسى بن مريم، عليه السلام، للإعلان أنه آية من عند الله تعالى، هي:

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً [29] قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً [30] مريم

وتدبر هذه الآيات لتعلم أهمية إقامة المسلم دينه على الحجة والبرهان الإلهي.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [73] أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [74]

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ [75] المائدة

إن التقول على الله تعالى، وعلى رسله بغير علم، وبغير إذن من الله تعالى، يخرج صاحبه من ملة التوحيد، ويدخله جهنم وبئس المصير.

وهذا تحذير لأتباع الرسل جميعا.

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ [72] المائدة

فتدبر: "إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ".

وهل بعد كل هذه الآيات البينات يجرؤ مسلم أن ينسب إلى رسول من الرسل، قولا أو فعلا..، لم يقم البرهان الإلهي عليه؟! لقد قالوا: "إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ"، فهل كان معهم برهان على ذلك؟! لم يكن معهم من حجة ولا برهان إلا ما وجدوا عليه آباءهم!!

فهل راجع أقوام الرسل، تدينهم الوراثي، وتبين لهم، أنه يحمل الإذن الإلهي والبرهان قطعي الثبوت عن الله تعالى، الدال على أنهم يتبعون الدين الإلهي الحق الذي نزل على رسولهم، على وجه اليقين؟!

لقد جاء الرد المثبت لكذب كل من يدعي نسبة شريعة إلى الله، دون إذن من الله بقوله تعالى بعدها: "وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ"..، لبيان أنه لا يمكن لأحد أن يقوم مقام الله عز وجل في التشريع، أو في إدارة شئون الكون، أو في توزيع النبوات، بدعوى تجديد الدين على رأس كل مئة سنة..، دون أن يحمل برهانا، لا تقل حجيته، من حيث الثبوت وصحة النسبة إلى الله تعالى..، عن حجية "الآية القرآنية".

لقد انحرف أهل الكتاب..، فبدلوا وحرفوا دون نكير من أحد، فلم تعد التوراة هي التوراة التي أنزلها الله، ولم يعد الإنجيل هو الإنجيل.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [93]

فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ [94]

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [95] آل عمران

ولو أن حلقات السلسلة الإيمانية تواصلت، وأقام أهل الكتاب التوراة التي أنزلت على موسى في حياتهم، ثم الإنجيل الذي أنزل على عيسى، والقرآن الذي أنزل على محمد عليهم جميعا أفضل السلام، لنالوا ما وعدهم الله تعالى به من نعم لا تحصى.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ [66]

إن إقامة "حجية الدين الإلهي" والعمل به، فيه سعادة الناس في الدنيا والآخرة.

لذلك جاء بعد الآية السابقة مباشرة، بيان لمهمة رسول الله الخاتم، عليه السلام.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [67] المائدة

ولقد بلغ رسول الله، عليه السلام، الرسالة، وأدى الأمانة..، وبين لأهل الكتاب حقيقة تدينهم الوراثي، وأن عليهم أن يخرجوا أنفسهم من فتنة [الآبائية] وظلماتها:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [64]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [65] هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [66]

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [67]

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [68] آل عمران

لقد كان الآباء يخفون عن أبنائهم كثيرا من الحقائق، حتى لا يرتدوا عن ملة الكفر إلى ملة التوحيد.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ [15]

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [16] المائدة

ومما كانوا يخفونه، خبر التبشير ببعثة رسول الله محمد، عليه السلام، وصفاته الموجودة في كتبهم، هذا الخبر الذي كانوا ينشرونه بين المشركين لتهديدهم، وتوعدهم ببعثة هذا الرسول الكريم وقتالهم معه، فلما بعثه الله تعالى أخفوه وكفروا به!!

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ [89] البقرة

والاستفتاح هو طلب الفتح، أي النصر، وقد كان اليهود إذا قاتلوا المشركين سألوا الله أن يبعث إليهم الرسول الموعود به في التوراة، فيؤيد المؤمنين ويعاقب المشركين فلما جاءهم ما عرفوا، أي الرسول، الذي كانوا يستفتحون به، كفروا به!!

ولقد أنذر الله تعالى أهل الكتاب الإنذار النهائي، وتوعدهم بالعذاب الأليم إن هم لم يؤمنوا برسوله الخاتم محمد، عليه السلام.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً [47] النساء

هذا هو الثمن الذي يدفعه الأبناء بتقليدهم الأعمى للآباء. هذا هو ثمن الإعراض عن ذكر الله تعالى. إنه العقاب النفسي، الذي يجعل المرء يرتد يوما بعد يوم إلى الخلف

الأمر الذي لا يعود عليه إلا بالخسران المبين.

ومما سبق يتبين لنا، أن الأبناء غالبا ما ينحرفون عن الدين الحق، الذي كان عليه الآباء الأولون، وذلك بسبب تفرق آبائهم إلى مذاهب شتى، واختلافهم، وتخاصمهم!!

إن الأبناء يرثون، دون تدبر منهم، أو تفكر أو تعقل أو نظر..، دينا محرفا، بسبب ثقتهم في عدالة وضبط وصلاح الآباء!!

لذلك كان من الطبيعي أن يتهم الأبناء الرسل بالكذب، وأنهم جاءوا ليصدوهم عن الدين، الذي يظنون أنه الحق، الذي كان عليه آباؤهم.

والسؤال: هل يعقل أن يكون النبي محمد، عليه السلام، هو الحلقة الأخيرة في سلسلة حلقات النبوات، المتبعة لملة إبراهيم، عليه السلام، ثم لا يسير أتباعه على نهج هذه النبوة فيختلفون في الدين، ويتفرقون إلى مذاهب دينية متصارعة، يتبعون "فتنة [الآبائية] التي وقع فيها أتباع الرسل السابقين؟! فتدبر:

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [16] وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنْ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [17]

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [18] إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ [19] هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [20] الجاثية

إن الله تعالى يأمر رسوله محمدا، باتباع شريعته، وعدم اتباع "أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ"، الذين ما "اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ"..، فكيف يقبل أتباعه مصدرا تشريعيا أحاطت به الإسرائيليات، فيقعون فيما وقع فيه بنو إسرائيل؟!

ولكن، لماذا اختلطت الرسالات الإلهية، بعد وفاة الرسل، بالخرافات، والأساطير والروايات المفتراة المنسوبة إليهم؟!

والجواب: بسبب فتنة [الآبائية]، والإغواء الشيطاني.

إنه الإغواء الشيطاني، على مر الرسالات، الذي لم يترك الآية والحجة الدالة على

صدق الرسول الخاتم، عليه السلام، لتكون وحدها الحجة على الناس، لعلم الشيطان الرجيم، أنه لو تُركت "الآية القرآنية" تعمل وحدها لتفاعلت معها قلوب الناس، ولدخلوا في دين الله أفواجا..، الأمر الذي يهدد مصالحه الشيطانية.

فماذا أعد هذا الشيطان الرجيم للناس، وخاصة من أسلم وآمن منهم، ليصرفهم عن "الآية القرآنية" بعد أن عجز عن اختراقها؟!

لقد كان من المنطقي، أن يُفَعّل الشيطان إغواءه مع حملة هذه "الآية القرآنية"، أكثر وأكثر، ويجعلهم، كما نجح مع أتباع الرسل السابقين، ينسبون إلى الله ورسوله من الدين ما لم ينزل به سلطانا.

ولماذا لم تحرف، رسالة رسول الله الخاتم محمد عليه السلام، ولم تختلط بمرويات الفرق والمذاهب المختلفة، وباجتهادات علماء المسلمين الفقهية؟!

والجواب: لأن الله تعالى تعهد بحفظها إلى يوم الدين.

وإذا كان المكذبون، في عصر الرسالة، عصر التنزيل واكتمال الدين، قد اتهموا رسول الله، بأنه أخذ القرآن من أساطير الأولين، ومن الرسالات المحرفة:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ [31] الأنفال

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [5] الفرقان

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ [24]

لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ [25] النحل

فهل يعقل، بعد وفاة رسول الله، واكتمال الدين، وتمام النعمة، وحفظ الله تعالى لكتابه، أن يقبل علماء المسلمين، اختراق الشيطان لحجية رسالة هذا الرسول الكريم بعد أن عجز عن اختراق حجية "الآية القرآنية"، ليرث المسلمون رسالة رسول الله ممثلة في مصدرين للتشريع:

أحدهما، محفوظ بحفظ الله تعالى له، وهو نصوص "الآية القرآنية".

والآخر، منسوب إلى الله تعالى، وإلى رسوله، قد تولى علماء الفرق والمذاهب المختلفة حفظه في أمهات كتبهم، كل حسب توجهاته العقدية والتشريعية؟!

ولكن الإشكالية الأكبر، أن علماء الفرق والمذاهب المختلفة، يعلمون جيدا، أن هذا المصدر الثاني للتشريع، قد أتاه الباطل، واخترقته الأساطير والإسرائيليات، التي ما زالت موجودة به إلى يومنا هذا..، ليسعد الشيطان ويفرح، بتحقق جانب من مخططه وهو الجانب المستطاع بالنسبة له!!

لقد جاءت رسالة رسول الله محمد عليه السلام، "آية قرآنية"، ليعلم الناس أن "حجية الدين الإلهي" لا تقوم إلا على الدليل قطعي الثبوت عن الله تعالى.

فهل يعقل، بعد كل هذا "النور"، الهادي إلى صراط الله المستقيم، وبيان أن حجية الدين لا تثبت مطلقا بأدلة ظنية، ولا باجتهادات الرواة ومدارس المحدثين في الجرح والتعديل، وشروطهم في التصحيح والتضعيف، أن يأتي حملة هذه "الآية القرآنية" وينسبوا إلى رسولهم، الذي اصطفاه الله تعالى من دون الرسل، لحمل هذه "الآية" ينسبوا إليه ما لم يقم الدليل قطعي الثبوت على صحة نسبته إلى الله تعالى؟!

هل تدبر أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، قول الله تعالى مخاطبا رسوله محمدا:

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [48] المائدة

ولكونها رسالة خاتمة، لا نبوة ولا رسالة بعدها، اتصفت بصفات عديدة تميزها عن الرسالات السابقة، وعلى رأس هذه الصفات: تعهد الله تعالى بحفظها، وقد احتوت دفاع الله عن رسوله، ليبقى هذا الدفاع خالدا بخلودها، فتدبر:

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ [1] مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ [2] وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ [3] وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ [4] القلم

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى [1] مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى [2] وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى [3] إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى [4] عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى [5] النجم

إن حملات الهجوم على رسول الله، عليه السلام، والصد عن سبيل الله، لم تختلف عن تلك التي واجهت جميع الرسل والأنبياء السابقين، يقول الله في سورة آل عمران:

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ [184]

إن الذين حملوا [البينات] لا يمكن أن يعبدوا ما وجدوا عليه آباءهم، كيف وهم على علم وبينة من ربهم!!

فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ [109] هود

إن من كان على علم وبيّنة من ربه، لا يمكن أن يُفتن، أو يشك لحظة أنه على الحق الذي أمر الله باتباعه، ولو أجمع الناس على غير ذلك: "فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ".

إن هؤلاء يرثون دينهم عن آبائهم دون فهم أو وعي: "مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ".

وتدبر كلمة [مِنْ قَبْلُ] والتي تبين أن الذين ساروا في طريق الضلال هم الآباء وأن دور الأبناء كان الاقتداء والتأسي بهم!!

إذن فلماذا وقع حملة "الآية القرآنية" في فتنة [الآبائية] وهي التي جاءت تربي الناس على نبذ الخرافات والمتناقضات؟!

لقد جاءت "الآية القرآنية" لتربي الناس على العلم الذي يربط قلوبهم بخالق هذا الوجود، عن طريق دلائل الوحدانية الموجودة في كل ذرة منه، كقاعدة يقيمون عليها حجية الدين الإلهي. فتدبر هذه المجموعة من الآيات من سورة النمل [59-64] وانظر كيف بدأت:

قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى أَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ [59]

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ [60] النمل

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [64] النمل

تدبر قوله تعالى: "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ"، وعلاقته بالأصول التي يجب أن تقوم عليها حجية الدين الإلهي واجب الاتباع.

لقد حملت "الآية القرآنية" خلاصة حكمة النبوات، وكيف أن حجية الدين الإلهي لا تثبت إلا ببرهان، وإذن من الله تعالى.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [33] الأعراف

لقد أرسل الله رسوله الخاتم بدين الحق، ليظهره على الدين كله، وليبين للناس أنه لا معبود إلا الله، ولا حاكم إلا الله، وأن كل من اتخذ من دون الله آلهة، فجزاؤه جهنم وبئس المصير، فتدبر:

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ [91]

وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنذِرِينَ [92]

وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [93] النمل

لذلك أنكر الله تعالى على أهل الكتاب افتراء الكذب عليه والجدل بغير علم، فانظر كيف خاطبهم الله تعالى، في سياق بيان حجية رسالته الخاتمة، لنقف على "مصيبة" أن ينسب أتباع رسول الله محمد، عليه السلام، إلى الله تعالى، أو إلى رسوله، شيئا لم يقم الدليل على صحة ثبوته عن الله عز وجل:

ولقد خاطب الله رسوله، والمؤمنين، والناس أجمعين، بقوله في سورة الأعراف:

كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [2] اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ [3]

إن الآية تتحدث عن مهمة رسول الله، عليه السلام، ووظيفته، وعما يجب على الناس تجاه رسالته. فمهمة الرسول أن يبلغ رسالة الله للناس، والتي جاء بيان موضوعها في الآية الأولى، وهو "الكتاب"، حتى لا يدعي مدع أنه متبع لما أنزله الله فإذا هو يتبع تراث آبائه، بغير علم، أو تحقيق، أو تبصر!!

لذلك جاء هذا النهي قاطعاً لكل المعاذير التي يتقول منتحلوها على الله غير الحق: "وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ".

إن الإنسان، أمام الشريعة الإلهية، إما أن يتخذ الله وليا، باتباع كتابه، وإما أن يتخذ من دون الله أولياء، باتباع كتب تشريعية ما أنزل الله بها من سلطان. لذلك عقب الله تعالى بقوله: "قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ".

نعم، فالقضية قضية تذكر، وتذكير..، قضية تفعيل آليات عمل القلب. ولو أنهم فعلوا ما أمروا به، ما اتّبعوا من دون الله أولياء. وهذا دليل على أنهم عطلوا آليات النّظر والاستدلال، فلم يتعرفوا فاعلية أسماء الله الحسنى، وحجية الدين الإلهي الذي أمر الله باتباعه، وذهبوا يدرسون كتبا ما أمر الله تعالى باتباعها. فتدبر:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ [43] سبأ

ثم تدبر ماذا قال الله تعالى بعدها:

وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ [44] سبأ

إن المكذبين، على مر الرسالات، يُقدّمون تراث الآباء، الذي تشربته قلوبهم، على [البينات] والبراهين القطعية، المثبتة لصدق الرسل. لذلك كان من الطبيعي أن يعتمدوا في صد الناس عن دعوة الرسل على أمور أهمها:

ـ استغلال مشاعر الناس تجاه آبائهم: "يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ" وكذلك تخويفهم من ضياع تراثهم بسبب هذه الدعوة الجديدة.

ـ إعداد الردود على القضايا التي أثارها الرسل، لصرف الناس عنهم: "وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرًى"، مستغلين جهل العامة بكثير من القضايا والمسائل الدينية.

ـ تشويه الكافرين لصورة الحق، واتهام أهله بالشعوذة: "إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ".

إن هذه الأمور الثلاثة، هي التي اعتاد المكذبون على مر الرسالات فعلها لمواجهة دعوة الحق، وتدوين المدونات والكتب بشأنها، وتركها للأبناء، كتراث ديني مقدس يحذرهم من خطر دعوة الرسل على مذاهبهم، ومعتقداتهم.

فلنتدبر مرة ثانية قول الله تعالى: "وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ". إنه تحذير للناس كافة من اتباع ما وجدوا عليه آباءهم، دون علم وبحث ودراسة لحجيته، فكل ما ينسب إلى الله تعالى أو إلى رسوله، يجب أن يتصف بالصفات التي وصفه الله بها، فيكون من البينات: "وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ..." التي لا يستطيع مخلوق معارضتها، أو تحريفها.

لذلك، عندما أصر المكذبون بدعوة رسول الله محمد، على طلب الآيات الحسية ظنا منهم أن استجابة الله لمطالبهم دليل على صدق رسوله، كان من هذه الطلبات أن ينزل عليهم كتابا من الله تعالى يثبت صدقه!! فتدبر:

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً [90] أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً [91]

أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً [92]

تدبر قولهم: "أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً"، لتقف على حجم تبجحهم، واستهزائهم برسول الله، عليه السلام، وأن قضيتهم في حقيقة الأمر، ليست قضية إتيان بآيات!!

لقد جاء الرسل بالآيات، وكذب بها الأولون!! إنهم لا يدرون ماذا يفعلون أمام هذه "الآية القرآنية". لذلك يستمرون في طلباتهم، ويقولون:

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً [93] الإسراء

تدبر قولهم: "وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُه"، لتعلم مدى افتقاد هؤلاء لآليات التدبر، والتفكر، والتعقل، والنظر..، فهل سيكفيهم إنزال كتاب من السماء، يرونه بأعينهم؟!

لقد جاء موسى وعيسى، عليهما السلام، بأعظم وأكبر من ذلك وكُذّبوا!!

ثم انظر، وتدبر، قوله تعالى، مخاطبا رسوله:

"قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً"، لتقف على الحدود التي وضعها الله تعالى للرسل، وأنهم يستحيل أن يتجاوزوا حدود النبوة.

لذلك قال الله تعالى بعدها:

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً [94] قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً [95] الإسراء

إن الذين يدّعون أن الله تعالى أعطى رسوله محمدا، عليه السلام، معجزات حسية كما أعطى الرسل السابقين، وأنه عز وجل فوض لرسوله أن يشرع تشريعات خارج حدود كتابه الحكيم..، هؤلاء عليهم أن يراجعوا أنفسهم، في ضوء هذه الآيات، وفي ضوء هذه الشهادة، التي سيعلم الناس جميعا فاعليتها يوم القيامة.

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً [96] الإسراء

ويبين الله تعالى موضوع هذه الشهادة، حتى يقطع الطريق على أعضاء منظومة [الآبائية] فيقول تعالى:

رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً [165] لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً [166] النساء

فهل يعقل أن يخبرنا الله تعالى أن الذي أنزله على رسوله، قد أنزله بعلمه، ثم نرى هذا المنزل ضائعا بين محدثي الفرق والمذاهب المختلفة، لا يعلمون، إلى يومنا هذا ما هي حدوده، وذلك بالنظر إلى مدارس الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف، للفرق المختلفة، من جهة، ولمذاهب الفرقة الواحدة من جهة أخرى، والتي تشهد بها أمهات كتبهم، ومواقعهم على شبكة الإنترنت؟!

تدبر مرة أخرى، وتعقل، أهمية هذه الشهادة، ومن هم القائمون عليها، لتقف على حجم هذه "المصيبة":

"لَكِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً"

إن الذين لا يعلمون قدسية التنزيل الإلهي، وقيمة شهادة الله تعالى وملائكته، أولى بهؤلاء أن يعتزلوا الدعوة الإسلامية، ويعيدوا النظر في تدينهم الوراثي المذهبي الذي أوقعهم في هذه المصيبة، ويقفوا أولا على "حجية الدين الإلهي" واجب الاتباع، وعلى كيفية هذا الاتباع، الموصل إلى صراط ربهم المستقيم. لأنه ليس من المعقول، أن يكون لكل فرقة من الفرق الإسلامية، أحكام تشريعية خاصة بها، قائمة على مرويات إن صحت عندها لم تصح عند أخرى؟!

وإذا كانت أزمة التخاصم، بين علماء الفرق المختلفة، هي التي فرضت عليهم ذلك فما الذي فرض على علماء مذاهب الفرقة الواحدة هذا التخاصم؟!

ثم كيف يحدث ذلك بين من يحملون "الآية القرآنية" التي تخاطب العالمين، بشريعة إلهية محكمة، قد فصلها الله تعالى تفصيلا؟!

تدبر هذه الآيات، التي تضع القواعد التي تقوم عليها حجية الدين الإلهي:

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ [114]

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [115]

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ [116]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [117]

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ [118] وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ [119] الأنعام

ثم انظر كيف أن مسألة ثبوت حجية النص التشريعي، وصحة نسبته إلى الله تعالى من مسائل الملة وليست من مسائل الأحكام، يقول فيها كلّ برأيه، حسب مذهبه الفقهي.

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [143] وَمِنْ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنْ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [144] الأنعام

ثم يضع الله تعالى القاعدة العامة:

وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [116] النحل

فكما هو واضح، فإن أحكام الشريعة الإسلامية لا تُستقى إلا من مصدر قطعي الثبوت عن الله تعالى، وليس فقط عن رسوله!!

لذلك يستحيل أن يكون جزء من أحكام الشريعة قد ثبتت حجيته عند علماء فرقة ولم تثبت عند علماء فرقة أخرى، في الوقت الذي بيّن الله تعالى فيه لرسوله، أن أحكام الشريعة كلّ لا يتجزأ، فقال تعالى:

وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ [49]

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [50] المائدة

تدبر قوله تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً"، ثم قوله بعدها: "لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ".

لقد نزلت نصوص الشريعة الإلهية ليعمل بها قوم يوقنون.

واليقين أعلى درجات العلم، وهذا يعني أن إثبات حجية الشريعة الإلهية لا يقوم إلا بأدلة وبراهين يقينية الثبوت عن الله تعالى، وليس فقط عن رسوله.

لماذا التدبر؟!

إن مادَّة كلمة "التدبر" يدور معناها حول النظر في عاقبة الأمور...، الأمر الذي لا يتحقق إلا بالدراسة الشاملة لآيات الذكر الحكيم، دراسة تفكر وتعقل..، للوقوف على دلالات الألفاظ، وإدراك معانيها، وأحكامها، شريطة أن يقف المرء خلف الآية ويترك سياقها يقوده إلى ذلك..، بعيدا عن التأويلات الباطنية، وعن الفهم الظاهري، والعلوم التي اشترطها علماء السلف لفهم القرآن.

إن "اللسان العربي" ليس وحده الحاكم على فهم الآيات القرآنية، فهناك أدوات أخرى تتكامل معه، ومنها "السياق القرآني".

فالكلمة القرآنية يجب أن تفهم في سياق الآية، والآية تفهم في سياق الآيات، قبلها وبعدها، والسورة تفهم في سياق سور القرآن، وبنائه المحكم.

إن "الكلمة القرآنية" هي وحدة البناء المكونة للآية القرآنية، لذلك فإن الخطوة الأولى نحو تدبر وفهم نصوص "الآية القرآنية" هي أن يتدبر المرء معنى الكلمة القرآنية حسب ورودها في السياق القرآني، وفي اللسان العربي، ثم انتقاء المعنى المناسب لموقعها في هذا السياق.

إن مكان الكلمة، في السياق القرآني، هو أنسب مكان اختاره الله تعالى لها، ولا يمكن أن تحل محلها كلمة أخرى تعطي نفس المعنى. لذلك فإن على المتدبر لكتاب الله أن يبذل جهده للوقوف على معناها المناسب في هذا السياق.

فعلى سبيل المثال، قد يفهم قارئ القرآن، أنه لا فرق بين [فعل] الله، و[خلق] الله في قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [40] آل عمران

وقوله تعالى في نفس السورة:

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [47] آل عمران

ولو أنه تدبر سياق الآية الأولى، لعلم أنه يتحدث عن قصة زكريا، عليه السلام وكيف أن الله تعالى أزال العقبة التي كانت تمنع امرأته من الحمل، لذلك ناسب كلمة [يفعل] هذا السياق.

أما الآية الثانية فيتحدث سياقها عن مريم عليها السلام، التي لم يكن لها زوج أصلا حتى يتم الحمل حسب الأسباب الطبيعية، فكان مجيء كلمة [يخلق] مناسبا لهذا السياق.

وقد يفهم قارئ القرآن، أن النهي عن قتل الأولاد، بسبب الفقر، قد جاء بمعنى واحد في قوله تعالى في سورة الإسراء:

وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً [31]

وفي قوله تعالى في سورة الأنعام:

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [151]

ولو أنه تدبر سياق الآية الأولى، لوجد أنه يتحدث عن خوف الآباء من الفقر بسبب مسئولية الإنفاق على أبنائهم..، أي أن الخوف يتعلق بالمستقبل..، لذلك قدم رزق الأبناء على رزق المخاطبين..، فقد يكونون الآباء أو غيرهم.

أما سياق الآية الثانية فيتحدث عن فقر موجود وليس عن الخوف من وقوعه لذلك قدم رزق الآباء على رزق الأولاد، لأن الآباء هم المصدر الرئيس لجلب الرزق.

والمعنيان يهدفان إلى بيان أن الرزق، في الحالين، مكفول من الله تعالى، سواء أكان الفقر موجودا، أم متوقعا.

ولو أن المسلمين المنشغلين بمسائل الصفات الإلهية، والتي قامت بسببها الحروب وسفكت الدماء..، لو أنهم تدبروا سياق الآيات التي تتحدث عن "يد الله"، وعن وجه الله" وعن "كلام الله"..، بعيدا عن أمهات كتب التفسير، ثم تدبروا قول الله تعالى:

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنْ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [11] الشورى

لو أنهم تدبروا قول الله تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" وفهموا معناه، لما احتاجوا بعدها لقراءة سطر واحد من كل ما كُتب في هذا الموضوع، من مئات الكتب التي سودت صفحاتها بالحديث عما لا يليق بذات الله تعالى وأسمائه الحسنى.

لو أنهم أقاموا فهمهم لآيات الذكر الحكيم، على أساس الآيات المحكمات، باعتبارها منطلقا أساس لفهم الآيات المتشابهات..، لما وقعوا في هذه الإشكالات.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [7] آل عمران

فلماذا جعلوا الأساس، الذي أقاموا عليه فهمهم لصفات الله تعالى، ولفاعلية أسمائه الحسنى، هو ما تشابه من الآيات؟!

هل يعقل أن يأتي السياق القرآني بآيات، تتحدث عن "يد الله"، وعن وجه الله" وعن "كلام الله"..، ليفتح بذلك باب الفتنة، والصراع المذهبي، بين علماء الفرق والمذاهب المختلفة، الذي لم يغلق إلى يومنا هذا؟!

والمصيبة أن هذه الفتنة جاءت في مسألة تتعلق بأصل من أصول الإيمان، وهو التوحيد الخالص لله تعالى، والذي يستحيل أن يأتي القرآن بما يهدمه، بأية صورة من الصور؟!

إن الأمثلة على موضوع البناء المحكم لسور وآيات الذكر الحكيم، وبيان أهمية "التدبر" لآيات الذكر الحكيم كثيرة، ولولا أن موضوعنا عن أهمية التدبر بوصفه أداة رئيسة من أدوات فهم القرآن، لذكرت مزيدا من هذه الأمثلة، راجيا من القارئ الكريم، أن يرجع إلى الدراسات القيمة، التي تناولت هذا الموضوع، والمنشورة على شبكة الإنترنت.

إن "الآية القرآنية" بناء محكم، مكون من سور وآيات وكلمات..، فالذي يريد أن يتدبر نصوصها ليقف على عطاءاتها، عليه أن يتعامل معها بوصفها منظومة محكمة الوحدات متناغمة المعاني، متصلة الموضوعات..، جاءت تخاطب العصور كلها بعيدا

عن الأفكار والمعارف والتفسيرات الموروثة، التي حجبت نور عطائها عن القلوب.

إن علامة صحة التدبر، أن يشعر المرء أن قلبه، الذي يتعامل بآليات عمله مع كلام الله تعالى، يعيش حالة من الخشوع والخشية، والخوف والرجاء، والسكينة والبكاء..، مما عرف من الحق.

لقد هجر المسلمون كتاب ربهم، بدعوى صعوبة فهم آياته، والخوف من التقول على الله بغير علم!! والحقيقة أن المشكلة ليست في فهم كتاب ربهم، وإنما في قلوبهم التي أصغت إلى علماء مذاهبهم، الذين أقنعوها بذلك، مخالفين قول الله تعالى:

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [17] القمر

لقد يسر الله للناس تعلم القرآن ودراسته، فهل من متدبر لنصوصه متذكر لها؟!

إن الإشكالية ليست في "القرآن"، وإنما في "الادكار"، وإلا فما معنى أن يخبر الله تعالى الناس أن القرآن الحكيم ميسر للذكر؟!

إن عدم فهم آيات الذكر الحكيم يرجع إلى عدم التعامل مع القرآن بأدوات فهمه وأهمها اللسان العربي المبين، وملاحظة السياق الذي وردت فيه الكلمة أو الآية.

وإذا كان القلب هو محل التدبر، فإن عدم تفعيل آلياته، من تفكر وتعقل ونظر... يحول دون تدبره لآيات الكتاب الحكيم.

إن الذين هجروا تدبر القرآن، هم الذين أغلقوا قلوبهم بأيديهم، فحرمهم الله تعالى نور هدايته، فظلوا في شقاق وضنك وعذاب.

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [24] محمد

إن انشغال القلب بغير كلام الله تعالى، يوقعه في كثير من المعاصي، التي تقف عقبة كئودا أمام تدبره لآيات الكتاب الحكيم.

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ [13] كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [14] المطففين

لذلك فإن الذي يقرأ القرآن دون أن يفهم آياته..، لم يتدبر القرآن. إن إغلاق القلوب

هو إغلاق لآليات عملها، فتصبح مهيأة لاستقبال الوحي الشيطاني..، لذلك نراهم يجادلون في آيات الله بغير علم!! وهذا ما نفهمه من قوله تعالى:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ [25] الأنعام

إن الذي سار في طريق هجر القرآن، وإغلاق قلبه أمام تدبره، لا شك أنه سيجد نفسه بعد فترة، قد وصل إلى المنطقة التي يختم فيها على القلوب وتوضع عليها "الأكنة" فيسير في هذه الحياة أعمى القلب!! فتدبر:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [46] الحج

وإليك بيان قرآني لبعض الحالات التي لم تتدبر القرآن:

- الذي يقرأ القرآن ولا يشعر بزيادة إيمانه...، لم يتدبر القرآن.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [2] الأنفال

- الذي يقرأ القرآن دون أن يتأثر به قلبه فيخشع لخالقه ويخشاه ويخضع لأوامره...، لم يتدبر القرآن.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [16] الحديد

- الذي يقرأ القرآن دون أن يشعر بأثر هذه التلاوة على جسده...، لم يتدبر القرآن.

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [23] الزمر

ـ الذي يقرأ القرآن ولا يجد فيه دواء للأزمات والتحديات المعاصرة...، لم يتدبر القرآن.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً [9] الإسراء

ـ الذي يقرأ القرآن ولا يبكي ساجدا لله تعالى...، لم يتدبر القرآن.

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً [58] مريم

ـ الذي يقرأ القرآن ولا يعرف القول الفصل، بين الحق والباطل...، لم يتدبر القرآن.

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً [1] الفرقان

ـ الذي يقرأ القرآن ولا يجد فيه شفاءه من الأمراض...، لم يتدبر القرآن.

وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً [82] الإسراء

ـ الذي يقرأ القرآن ولا يستغني به عن أية موعظة...، لم يتدبر القرآن.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [57] يونس

ـ الذي يقرأ القرآن ولا يقف على البناء المحكم لآياته، وسوره...، لم يتدبر القرآن.

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [1] هود

ـ الذي يؤمن أن الله أنزل على رسوله كتابا ثانيا مبينا ومكملا لأحكام القرآن...، لم

يتدبر القرآن.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً [30] وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً [31] الفرقان

- الذي يؤمن أن الله تعالى سيحاسب الناس يوم القيامة عن عدم اتباعهم كتابا غير كتاب الله...، لم يتدبر القرآن.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [124] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً [125] قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى [126] طه

- الذي يقرأ القرآن ولا يقف في كل مرة على المعاني الجديدة، والعطاءات المباركة.

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [29] ص

إن أولي الألباب هم أصحاب القلوب السليمة، الذين يتفكرون في آيات الكتاب ويقفون على ما فيها من عطاءات النظم، وإحكام البناء، وتناغم المعاني مع الكون... فيشهدون شهادة علمية أنه من عند الله يقينا.

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً [82] النساء

وأيضا، أنت لم تتدبر القرآن، حق تدبره، في الحالات التالية:

- إن لم تجعل نفسك تابعا، والجملة القرآنية متبوعة.
- عندما لا تشعر أن الله تعالى يخاطبك، شخصيا، بآياته، ويطلب منك العمل بها.
- إن لم تقف على الملاحظات العلمية الدقيقة، والنكت البلاغية، التي يحملها السياق القرآني.
- إن لم تقف على السنن الإلهية، وتكتشف القوانين التي وراءها، وكيفية الإفادة منها.
- إن لم تجعل من نفسك تلميذا، والقرآن مدرسا.

- عندما تفهم الآيات القرآنية فهما تجزيئيا، فتفصل الجملة عن سياقها، وعن السياقات الأخرى، لاستنباط مفاهيم تخدم توجهاتك المذهبية.

لذلك فإن فهم نصوص "الآية القرآنية"، حسب توجهات الفرق والمذاهب المختلفة ليس من التدبر في شيء، فكلام الله يعلو ولا يعلى عليه، حاكما وليس محكوما..، هذا إن كنا نريد أن نكون من "الربانيين"، الذين لا تفتح "الآية القرآنية" أبواب عطاءاتها وكنوزها... إلا لمن تخلق بأخلاقهم.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ [79] آل عمران

فالذين يقولون بالترادف في القرآن، وظنية دلالة الكلمة، أو الآية، ومسألة الحقيقة والمجاز، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول..، هؤلاء ينطلقون من منطلق التراث الديني لمذاهبهم المختلفة، وليس من منطلق "الآية القرآنية" المعاصرة لهم، التي كان يجب عليهم أن يتعاملوا معها بوصفها آية إلهية معاصرة، أمرهم الله تعالى بتفعيلها بين الناس وإقامة الشهادة عليهم.

كيف يكون القرآن كتاب هداية، وآية قائمة بين الناس إلى يوم الدين..، ثم يضع الله تعالى أدوات فهمه، في أيدي أئمة الفرق والمذاهب المختلفة، كل حسب مدرسته في الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والتفسير بالمأثور..، وغير ذلك من علوم وضعت لتكون عقبة أمام تدبر القرآن؟!

لقد كان من ثمار عدم تدبر المسلمين للقرآن الحكيم، أن أصبح القرآن اليوم، بلا فاعلية، فقد انفصل المسلمون عنه، وتركوه كتابا مهجورا..، لا يبني أمة، ولا يوحد صفا ولا يجمع كلمة، ولا يحفز المسلمين على النهوض من كبوتهم..، فمتى سينهضون ويوحدون صفهم وكلمتهم؟!

لقد فهم المسلمون آيات الذكر الحكيم من خلال ما في أذهانهم من ثقافة دينية وأحكام فقهية مسبقة، كانت سببا في تفكيك السياق القرآني، وهدم بنيته المحكمة والتقول على الله بغير علم.

فكيف يكون محل الخلاف والصراع والنزاع بين علماء السلف والخلف، حاكما على فهم المسلمين لرسالة الله العالمية الخاتمة، والله تعالى يقول:

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً [82] النساء

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [24] محمد

عطاء "الآية القرآنية"

لقد جاء عصر العلم، وجاءت معه إشكالياته، وغاب عن الإنسان، وعن العلماء [في معاملهم] وعن المسلمين، كل في عمله، أن هذا الكون أمانة في أيديهم وأن رسول الله محمدا، قد جاء ليخرج الناس من ظلمات الجهل والإفساد في الأرض، إلى نور العلم والفهم الواعي لمعنى الإسلام، وكيف يحقق الإنسان السلام النفسي والاجتماعي والكوني في هذا الوجود.

لقد أنزل الله تعالى كتابه الخاتم، للناس كافة، ولكل العصور، يستطيع كل فرد أن ينهل من عطائه، حسب إمكاناته الثقافية والمعرفية، كـ "آية قرآنية" يشمل عطاؤها الكون كله.

لقد جاءت "الآية القرآنية" ليهتدي بنورها العلماء، وليقيموا دراساتهم وأبحاثهم في إطار شريعتها، فالله سبحانه وحده الذي يعلم ما ينفع الإنسان وما يضره.

لذلك لا أجد عذرًا لأحد، يهجر هذا القرآن بداعي عدم فهم آياته، أو أن يحمّل مسئولية فهمها لعلماء مذهبه، دون أن يكون له دور في تدبر ومراجعة هذا الفهم حسب أدوات الفهم التي حملها له القرآن نفسه.

لقد أمر الله تعالى الناس جميعا باتباع هذا القرآن، فلا يعقل أن يكون كل فرد مسئولا أمام الله تعالى عن اتباعه، ثم يفوض غيره في هذا الاتباع نيابة عنه!!

يقول الله تعالى في سورة الأعراف:

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ [3]

وهذا الأسلوب في التعامل مع القرآن، هو ما يجعل لآيته فاعلية بين الناس المعاصرين له دون أن تكون هذه الفاعلية حكرا على فئة دون أخرى..، فعطاء القرآن للناس كافة، يأخذون منه بمقدار ما يستوعبون.

إن لكل إنسان في هذا الوجود حقه في أن يتعرف إلى الله تعالى، وإلى فاعلية أسمائه الحسنى، وكيف يتعامل مع هذا الوجود، من خلال مصدر معرفي حق، لا يأتيه الباطل. فالقرآن الكريم ليس كتابا مدرسيا يدرس في المؤسسات التعليمية..، وإنما هو كتاب هداية يقوم على التفاعل الحي بين آيات الآفاق والأنفس.

فكيف يُحرم الناس الإفادة من هذا التفاعل، الذي لا يستطيع الوقوف عليه إلا الإنسان نفسه..، ببصيرته، وفهمه وتدبره هو؟!

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [104] الأنعام

إن العطاء القرآني ليس درسا يدرس في المدارس، وإنما هو معايشة، وممارسة وبصيرة، وسلوك عملي قويم، يأخذ بأيدي الناس إلى صراط ربهم المستقيم.

إنه بدون نقل هذا العطاء من عالم الأفكار إلى عالم الواقع، المعاصر للناس، يظل القرآن نصا إلهيا، ينتظر من يقوم بتفعيله بين الناس!!

إن قوله تعالى: "فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ"، يبين أن كل إنسان مسئول عن تفعيل هذا القرآن في حياته والوقوف على بصائره. وكذلك فإن كل إنسان محاسب عن إعراضه وهجره لهذا القرآن، فقد قال تعالى: "وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا".

وهذا يعني أن المسئولية وإن كانت تقع على كل إنسان، فإن الله تعالى جعل الإنسان، أمامها مختارا، فإما أن يبصرها، فيصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويحق عليه قول الله تعالى:

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى [123] طه

أو لا يبصرها، فيحق عليه قول الله تعالى:

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [124] قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً [125]

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى [126] طه

إن مشكلة المسلمين اليوم أنهم ورثوا الإسلام ثقافة ومعارف دينية، لا تخرج عن دائرة الحوار والجدل الفكري، عبر منابر الدعوة المختلفة!! إنهم لم يبصروا حقيقة الرسالة التي يحملونها، وكيف أنها جاءت لتقيم، على أرض الواقع، الحق والعدل بين الناس. جاءت لتواجه الانحرافات الفكرية، وتضع لها العلاج.

إن مشكلة المسلمين، أن "الآية القرآنية" التي هي بين أيديهم اليوم، لم تنجح في توحيد كلمتهم، وإنهاء أزمة التخاصم والتكفير بينهم. فلماذا؟!

لأنهم لم يتربوا على مائدتها، ولم يقتلعوا الفرقة والمذهبية من جذورها، ولم يضعوا البرامج التي تجعلهم يفيدون من السنن الكونية التي تحرضهم على التطلع دوما نحو الخير.

إن مشكلة المسلمين، أنهم لم يقفوا على فاعلية "النور" الذي وصف الله به كتابه الخاتم، فقال تعالى:

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [8] التغابن

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ [15] المائدة

فالكتاب، هو هذا المصحف، الذي بين أيدينا اليوم..، إذن فما هو "النور"؟!

إن "النور" شيء معنوي..، كالروح الذي لا يستغني عنه الجسد. فكتاب الله، ليس فقط هذا المصحف الحاوي للجمل والألفاظ القرآنية، فهذا كالجسد الذي لا يستغني عن الروح [أي النور] الذي يمده بفاعليته.

لقد كان هذا "النور" هو الروح الذي تحمله هذه الجمل، وهذه الألفاظ، والذي يشعر به قارئ القرآن..، ينير الطريق إلى صراط ربه المستقيم.

إن معظم المسلمين يتعاملون مع "الآية القرآنية" كنص وجمل وألفاظ مدونة في المصحف، دون الإفادة من نعمة "التدبر" التي تظهر لهم هذا النور، وتكشف عن أنواع هدايته، التي لا تحصى.

لذلك سمى الله تعالى الملك المكلف بإنزال القرآن على قلب رسوله محمد، عليه السلام، بـ "الروح الأمين".

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [192] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ [193] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ [194] الشعراء

ولقد أطلق الله كلمة "الروح" على "الآية القرآنية" لبيان خاصية من خصائصها:

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [52] الشورى

فكما أن الجسد من غير "روح" جسد ميت، فكذلك الإنسان من غير هداية "الآية القرآنية" نفس من غير روح. فتدبر:

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [122] الأنعام

لقد تفرد الله تعالى بعلم وحقيقة هذا "الروح"، وأخبر الناس فقط ببعض المعلومات عن وظيفته، لذلك قال تعالى، مخاطبا رسوله محمدا:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [85]

ولبيان أن هذا "الروح" مكون رئيس لهذه "الآية القرآنية"، قال تعالى بعدها:

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً [86] الإسراء

فهل يعقل أن يهجر المسلمون هذا "الروح"، وهذا "النور" الذي وصف الله القرآن به والذي يستطيع وحده أن يخرجهم من "ظلمات" الفرقة والتخاصم، إلى "نور" الوحدة والحب والتآلف والتعاون..، ويتبعوا تفسيرات البشر، وتأويلاتهم المذهبية، لآيات هذا القرآن الحكيم؟!

وهل يعقل أن يتعامل المسلمون مع كتاب الله تعالى، بعيدا عن هداية السياق القرآني، وعن حكمة التنزيل، وعن النور الهادي إلى صراط ربهم المستقيم..، هذا الأصل الأصيل وهذه السنة النبوية الحقة التي تمسك بها رسول الله محمد عليه السلام وصحبه الكرام، والتي أشار إليها قوله تعالى "وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"؟!

إن المتابع للتوجهات الفكرية العالمية، يجد أن العلماء والمفكرين، مهتمون بما اصطلحوا على تسميته بـ "التنمية المستدامة"..، فتعالوا نتعرف وباختصار، المقصود

بهذا المصطلح، وموقف "الآية القرآنية"، المعاصرة لنا، من هذا المشروع.

يدعو مشروع "التنمية المستدامة" الدول والمجتمعات إلى وضع الخطط الشاملة التي تضمن حسن إدراة مواردها الطبيعية ومتطلباتها الحياتية، بهدف توفير احتياجات الأجيال الحالية، دون الإخلال بحقوق الأجيال المستقبلية في حياة أفضل.

إلا أن هذا المشروع مازال يواجه عقبات عند تنفيذه على أرض الواقع. لماذا؟!

الحقيقة أن السبب يكمن في أن علم البشر مهما وصل، قاصر عن الإحاطة بكل ما ينفع الإنسان وما يضره.

إن المتدبر لنصوص "الآية القرآنية"، يستطيع أن يستخرج من عطاءاتها ما يضمن للعالم أجمع "تنمية مستدامة"، على مر العصور، إلى يوم الدين.

وسأضرب مثالا يبين كيف اهتمت الشريعة الإسلامية بوضع الخطط المستقبلية التي تضمن السلام والتكافل الاجتماعي، بين الناس..، والتي تشمل أضعف الحلقات الاجتماعية في المجتمع، وهم "السفهاء" الذين لا يحسنون التصرف في الأموال وتدبير شؤونهم المالية والاقتصادية، وإدارتها بما يحقق لهم منافعها، في الحاضر والمستقبل.

وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً [5] النساء

لذلك كان بلوغ "الرشد" شرطا لاستلام اليتيم أمواله، كما بينت ذلك الآية بعدها "فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ".

والحقيقة أن سياق الآيات جاء يحمل من التشريعات الحكيمة كثيرا..، ومنها:

أن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن أموال اليتامى، التي يتولى أمر إدارتها وإنمائها الأولياء، ما يفهم منه أن المراد بالسفهاء هنا "السفهاء من اليتامى"، ولا يمنع أن يكون الحكم عاما، يشمل سائر السفهاء، وفي هذه الحالة يكون الخطاب للمجتمع.

لقد اعتبر القرآن المجتمع شخصية واحدة، عليها أن تدبر الموارد، وتعمل على تنميتها، وحسن التصرف فيها..، فلا تنفصل مصالح فرد عن مصالح الآخرين.

ومن هذا المنطلق، اعتبر القرآن أموال اليتامى، أو السفهاء، ملكا عاما، إذا لحق به ضرر فإنه يلحق بالمجتمع كله.

لذلك جاء بضمير المخاطب [أموالكم] بدل ضمير الغائب [أموالهم] لبيان أن هذه الأموال، أموال الناس جميعا، يجب المحافظة عليها.

لقد جاءت الشريعة الإسلامية تأمر الناس بوضع الخطط العلمية، والعملية، الجادة التي تضمن حاضرا مستقرا، ومستقبلا أفضل.

فانظر كيف وصف القرآن الأموال، في مطلع الآية، بقوله تعالى: "الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً"..، وذلك لبيان أن هذه الأموال، التي هي قوام حياة الناس والمجتمع، يجب منع إعطائها للسفهاء والمسرفين، حتى لا يضيعوها، فيلحقوا بالمجتمع أضرارا مالية واقتصادية كبيرة.

كما استخدم السياق ظرف المكان [في] الذي يعني "اجعلوا رزقهم فيها" لبيان أنه على الأولياء ألا يعطوا السفهاء أموالهم، وأن يجعلوها مكانا لرزقهم، أي يستثمروها ويرزقوهم من أرباحها، فيجعلوا أرزاقهم من أرباح الأموال لا من أصولها.

ولم يستخدم السياق كلمة [منها] لأن هذا يعني أنّ الولي سيقتطع شيئا فشيئا من أصل المال، فينقص المال، فلا يجد اليتيم، أو السفيه، بعد ذلك مالا ينفق منه!!

فماذا نستنتج من ذلك؟!

نستنتج، أنه يستحيل أن تتحقق توجيهات وأحكام هذه الآيات، على وجهها الصحيح من غير خطة علمية جادة، تضمن تدبير الموارد، والمحافظة على مصادرها، وحسن إدارتها، بما يضمن استقرارها، وتوازنها.

فانظر كيف أن استخدام كلمة مكان أخرى، في السياق القرآني، قد غير معنى الجملة، من الأمر بالمحافظة على أموال اليتامى، والسفهاء، والإنفاق عليهم منها، إلى وضع الخطط، التي تضمن دوام هذا الإنفاق بصورة رشيدة، مستقبلا.

أليست هذه صورة مصغرة، وميسرة، لما يتحدث عنه العالم اليوم من مشاريع "التنمية المستدامة"، وقد احتوت "الآية القرآنية" الأصول والقاعد العامة، التي تضمن نجاح هذه المشاريع، وتحقيق أهدافها المرجوة؟!

إن العالم، من حولنا، لن يؤمن بصدق "الآية القرآنية"، إلا إذا وقف على عطاءاتها التى تنير له الطريق أمام تحدياته، التي عجز عن مواجهتها بإمكاناته وتقنياته، وهذا ما أكده الله تعالى بقوله:

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [53] فصلت

ولكن اللافت للنظر، والغريب حقا، أن علماء المسلمين لا يملكون المراكز العلمية والتقنيات المتطورة، وقواعد البيانات....، التي تمكنهم من بحث ودراسة فاعلية آيات الذكر الحكيم، التي حمل سياقها إشارات علمية، فيخرجون إلى العالم وبأيديهم "الآية القرآنية"، والاكتشاف العلمي الذي توصلوا إليه.

إنهم ينتظرون حتى يتوصل علماء العالم المتقدم إلى مكتشفاتهم العلمية، والتي لا تخرج في حقيقة الأمر، عما تحمله آيات الآفاق والأنفس من دلائل الوحدانية ينتظرون حتى يعلن العلماء عن إنجازاتهم..، ثم يخرجون على العالم بعقد المؤتمرات وكتابة البحوث... رافعين راية "الإعجاز العلمي في القرآن"!!

لا شك أن هناك فرْقا كبيرا، بين أن تخرج هذه الاكتشافات على أيدي علماء المسلمين، ومن المراكز العلمية التابعة لهم، والتي تحتفظ بمفاتيح وأسرار بحوثهم العلمية..، وبين أن يكونوا تابعين للغرب لا يتحركون إلا إذا تحرك علماؤه، وهم الذين أنعم الله عليهم بحمل هذه "الآية القرآنية"، ليقيموا بها الحجة والشهادة على الناس!!

لقد بينت نصوص "الآية القرآنية" الأصول والقواعد العامة التي تكفل للناس حياة مستقرة سعيدة على الدوام، فإذا كان الناس لا يتدبرون نصوصها، فهل تدبرها أهلها؟!

ولقد وضعت "الآية القرآنية" الأصول والقواعد التي تقوم عليها مشاريع "التنمية المستدامة" التي تضمن حاضرا مشرقا، ومستقبلا أفضل للأجيال القادمة. فتدبر:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ [15] المائدة

انظر..، ما الذي جاء به رسول الله محمد، عليه السلام؟!

إنه النور والكتاب المبين. إنه القاعدة التي تنطلق منها عطاءات "الآية القرآنية" على مر العصور، وإلى يوم الدين. وإن من هذه العطاءات، قول الله تعالى بعدها:

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [16] المائدة

إن على علماء العالم أن يعقدوا المؤتمرات، ويقدموا البحوث والدراسات..، تحت عنوان: "سُبُلَ السَّلامِ"، ودورها في إنجاح "التنمية المستدامة".

فما هي هذه السبل الموصلة إلى "السلام"، وكيف سيُخرج هذا "السلام" الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم؟!

إن الذي يهدي الناس إلى "السبل الآمنة"، و"التنمية المستدامة"، ليحققوا أهدافهم المرجوة..، هو الله تعالى: "وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"، فتدبر:

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [25] يونس

وإن مما جاءت به "الآية القرآنية" وينطلق من النور والكتاب المبين، قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ [24] تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [25] إبراهيم

إن الكلمة الطيبة، هي:

- شجرة الحق الثابتة، المستقرة في الأرض، والتي من قوتها وثباتها، امتدت فروعها في الفضاء على مد البصر.

- شجرة النبوة الثابتة، التي لا ينقطع ثمرها، والتي تؤتي أكلها إيمانا وخيرا وبركة وتنمية، وإصلاحا في الأرض.

- شجرة الإيمان والتقوى والخشية والخوف من الله تعالى.. هذه الأخلاق التي تقيم الحق والعدل بين الناس.

- شجرة العمل الصالح، و"التنمية المستدامة" التي تضع البذور الصالحة في الحاضر لتجني ثمارا صالحة في المستقبل.

- جميع الموجودات، التي خلقت بكلمة الله "كن"، والتي تعمل ذراتها ليل نهار، من أجل المحافظة على استقرار وحيوية وبقاء هذا الوجود.

. منظومة من النعم متكاملة، لها أصل طيب طاهر ثابت، وفرع ممتد إلى السماء... يدل على عظمة ودقة نظام صنعها وعملها.

إن الله تعالى عندما يضرب المثل بشجرة، تشق فروعها الهواء، حتى تصل إلى السماء، حيث السمو والرفعة، وحيث لا تلوث بيئيًّا، ولا إفساد زراعيًّا..، فتؤتي ثمارا طيبة لمن يطلبها، وإن كانت في عنان السماء..، لا شك أن في ضرب المثل حكمة.

إن الحكمة، المستنبطة، من وجهة نظري هي أن الله تعالى يريد أن يبين للناس:

أولا: أن أقوال المؤمن طيبة، وأعماله صالحة، لا يغش، ولا يكذب، ولا ينحرف عن منهج الله تعالى، يخاف الله، ويطيعه في كل أمر، خيره وعطاؤه للناس جميعا... كالشجرة الطيبة.

ثانيا: أن يقوم المؤمن بتفعيل هذه الأخلاق، سلوكا عمليا..، يقوم على التخطيط العلمي ووضع برامج ومناهج التنمية في كافة المجالات الحيوية، بهدف ضمان الوفاء باحتياجات الحاضر، ومتطلبات المستقبل.

ثالثا: أن ينطلق المؤمن في تعامله مع "كتاب الله"، بوصفه "آية قرآنية"، وكلمة طيبة لا حدود لعطائها، المتجدد، على مر العصور، وإلى يوم الدين.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً [109] الكهف

إن العطاء المستدام الذي أصله ثابت، وفرعه ممتدد في السماء، هو عطاء "كلمات الله" الذي لا ينفد، والذي يضمن تحقيق التوازن بين المدخلات والمخرجات، بين الوارد والمنصرف، بين احتياجات الحاضر ومتطلبات المستقبل..، في حركة هذا الوجود البشري. إنه فاعلية أسماء الله الحسنى، التي تحكم نظام هذا الكون.

ولكن الناس في غفلة عن تدبر القرآن**!!**

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [24] محمد

إن الذين يدّعون أنهم يقومون على تفعيل "الآية القرآنية" في واقع حياتهم نسألهم: أين هي هذه الفاعلية، وأين شجرتها، وفروعها، وثمارها التي أثمرتها**؟!**

لقد أحكم الشيطان [الأقفال] على القلوب فلم تعد ترى نور أو عطاء "الآية القرآنية".

لقد نجح في إبعاد الناس عن "نور" الآية، وعن فاعليتها!!

ولقد تمسك المسلمون بنصوص "الآية القرآنية"، وراحوا يتنافسون على ترتيلها وتجويدها، وإقامة المسابقات لاختيار أحفظهم للقرآن، وأنداهم صوتا..، وأصبح ذلك هو شغلهم الشاغل، الذي لم يعد أمامهم ما يفعلونه مع "الآية القرآنية" غيره.

إن قضية الناس مع هذا القرآن، وخاصة المسلمين، قضية خشية وخشوع وتدبر. وهي مسائل أدخلوها دائرة العبادات، لتظل قضية قلوب، لا يعلمها إلا خالقها!!

إنه خلاف على الإيمان بعلم الله المطلق، ولكننا نؤمن أيضا أن الإنسان إن لم يقم بتفعيل ما يؤمن به، سلوكا عمليا، وأخلاقا حميدة، وعملا صالحا..، فيحق لنا أن نشك في صدقه. فتدبر:

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [21] الحشر

لقد تحول "الخشوع" إلى سلوك عملي..، فتصدع الجبل!!

لذلك يقف "الراسخون في العلم" موقفا واحدا أمام هذا الخشوع، فيتعاملون مع آيات القرآن الحكيم، المحكم منها والمتشابه، من قاعدة التسليم لا الجدل العقيم!!

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [7] آل عمران

نعم، "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ". لقد أنزل الله تعالى "آيته القرآنية" لتكون النور الهادي إلى سعادة البشرية، في الدنيا والآخرة.

ولكن، أين هم حملة هذا النور؟! وماذا يفعلون؟! وما دورهم اليوم في إخراج الناس من الظلمات إلى النور؟!

لقد تخلى حملة "الآية القرآنية" عن نور هدايتها، وراحوا يلوثون بيئتهم، ماديا وفكريا..، وكلما ازدادت مخاطر منتجات التلوث كان المسلمون على رأس المستهلكين

لها، فإذا استيقظ العالم، وأخذ يصلح ما أفسده، ووضع الخطط التي تحقق له "تنمية مستدامة"..، تأخر المسلمون عن ركب الإصلاح والتنمية!!

لقد جاء السياق القرآني يتحدث عما يجب أن يقيمه الناس في حياتهم، من شريعة إلهية، تعصمهم من الوقوع في هذا الإفساد، حتى لا يظهر في البر والبحر..، فتدبر:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [37] الروم

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [38]

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُضْعِفُونَ [39]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [40]

لقد وصلت المشكلات البيئية، المحلية والعالمية، إلى حجم يشكل خطورة على العالم أجمع، وكلها بما كسبت أيدي الناس، فتدبر قول الله تعالى بعدها:

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [41] الروم

تدبر قول الله تعالى: "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"، فهل رجع المسلمون قبل أن يرجع العالم؟! انظر وتدبر السياق القرآني الذي وردت فيه هذه الآية، لتعلم حجم "المسئولية" التي سيواجهها المسلمون، حملة "الآية القرآنية"، في الآخرة، يوم الحساب!!

قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ [42] فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ [43] الروم

إذن فإقامة الوجه للدين القيم، هو طوق النجاة العاصم من دخول الإنسان دائرة الإفساد في الأرض، بأنواعه المختلفة، والعاصم من عذاب الله يوم القيامة.

فما هو هذا "الدين القيم"، الذي يجب على الناس أن يقيموا وجوههم له، إن لم يكن هو هذا الدين الذي حملته "الآية القرآنية" للناس؟!

وهل هذا الدين، الواجب على الناس إقامة وجوههم له، هو هذا الذي يُعرض على منابر الدعوة، المحلية والفضائية، والتي يخاطب فيها أصحابها أتباعهم، بمسائل لا علاقة لها بمقاصد هذا الدين القيم، في وقت كان يجب عليهم أن يدعو الناس إلى تفعيل هذه "الآية القرآنية" التي جاء بها رسول الله محمد، عليه السلام، رحمة للعالمين؟!

إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ [106] وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ [107]

قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [108]

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ [109] الأنبياء

وإذا كانت الدول تستطيع أن تحمي شعوبها من التلوث والأمراض التي قد تحصد شعوبا بأكملها، فهل تستطيع أن تحميهم مما يحمله الهواء من تلوث مدمر؟!

إذن فلماذا لا يكون "العذاب الإلهي" الذي جاء في قوله تعالى: "لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا" هو جزاء هذا الإفساد البيئي، الذي يعيشه العالم اليوم، برا وبحرا وجوا؟! ولماذا لم يقتنع العالم بأن طوق النجاة، من هذا العذاب، في قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [96]

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ [97]

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ [98] الأعراف

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [99] الأعراف

إن العالم لم يقتنع لأن طوق النجاة لم يصل إليهم سليما حسب المواصفات الإلهية.

وإذا كنا نقول: إن على كل إنسان أن يبحث عن طوق النجاة، فإن الأزمة، التي يواجهها العالم اليوم، أكبر من أن تديرها الجهود الفردية!!

صحيح أن الله تعالى قادر على رفع هذا العذاب بكلمة، بل وقبل الكلمة..، إلا أنه عز وجل، قد وضع في الكون سننا، تعمل بآليات وأسباب، وعلى الإنسان أن يقوم بتفعيلها، والإفادة منها..، أو تعطيلها إن شاء، فكل ذلك "بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ".

فهل لا يعلم الله تعالى، على سبيل المثال، مشكلة، أو ظاهرة "الانحباس الحراري" الناتجة عن تراكم ثاني أكسيد الكربون في الجو، الذي يسببه إفساد الإنسان في الأرض والتي قد تؤدي في يوم من الأيام إلى تدمير العالم أجمع؟!

وهل لا يعلم الله تعالى أزمة التفرق والتخاصم القائمة بين حملة "آيته القرآنية" والتي كانت سببا في تخليهم عن مسئولية الشهادة على الناس؟! فما الفرق، بين علم الله تعالى في الحالين؟!

لقد شاءت إرادة الله تعالى، وحكمته، أن يترك الناس لاختياراتهم..، فأمامهم "الآية القرآنية" تدعوهم ليل نهار أن يتدبروها، ويدرسوها..، ليقفوا على عطائها، وصدق من أنزلها، وصدق من بلغها. وإذا كان المسلمون، لم يتدبروها ولم يقفوا على "مأساة" تفرقهم وتخاصمهم، فكيف يؤاخذ غيرهم بهجرهم لها؟!

إن "التفرق في الدين" لا يقل إفسادا عما يحدث في العالم من تلوث بيئي، فلقد جاءت "الآية القرآنية" ليحملها المسلمون "أمة واحدة"، تقيم الحق والعدل بين الناس وتضع لهم البرامج، العلمية والعملية، التي تحمي مجتمعاتهم، من كل هذه الأزمات.

لقد جاءت "الآية القرآنية" لتواجه كل هذه التحديات وكل هذا التلوث: البيئي والاقتصادي، والاجتماعي، والأخلاقي..، بفكر "العمل الصالح"، الذي هو أصل أصيل من أصول الإيمان، التي لا يصح إسلام المرء إلا إذا قام بتفعيلها في حياته.

أليست ظاهرة "أمية القراءة والكتابة" المنتشرة في العالم العربي وكيفية علاجها من مسئولية علماء المسلمين، قبل أن تكون من مسئولية غيرهم؟!

ألم يأت رسول الله محمد عليه السلام، بآية عقلية تحث الناس على القراءة والكتابة والعلم؟! إذن فمن كان أولى بحمل دعوة "محو أمية القراءة والكتابة" إلى العالم... المسلمون أم غيرهم؟!

أليس تخلي المسلمين عن هذه المسئولية يساعد في انتشار الفساد في الأرض حيث ينتشر الجهل، وما يدريك ما في انتشاره في المجتمعات النامية؟!

لقد جاءت "الآية القرآنية" لتقيم أمة، هي خير أمة أخرجت للناس، فهل يمكن أن يتصور، أن يشهد الله تعالى لهذه الأمة بالخيرية، وهي عالة على الأمم الأخرى في معظم مقومات حياتها؟!

إن "خيرية الأمة" في إيمانها بالله، وإخلاص عبوديتها، وتمسكها بشريعة ربها وتفعيلها لنصوص "الآية القرآنية"، واستلهام عطائها المتجدد على مر العصور.

إن "خيرية الأمة" في نهضتها في مجالات الحياة كافة، اقتصادية واجتماعية وثقافية والمحافظة على هذه النهضة، والتخطيط لاستمرارها.

فأين هي هذه "الأمة الإسلامية"، وأين هم المسلمون من هذه "الخيرية"؟!

أليست "مصيبة" أن تتخلى منابر الدعوة عن العمل على استرجاع "خيريتها"؟!

فمتى يستيقظ أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، المتخاصمة، من سباتهم، ويتحملون مسئوليتهم..، فإن لم يفعلوا، فمن الذي سيتحمل هذه المسئولية نيابة عنهم؟!

لقد جاءت "الآية القرآنية" تعاقب على الإفساد في الأرض، بكل صوره، فإلى من كان هذا الخطاب؟!

ومن الذي كان عليه أن يتحمل هذه المسئولية، ليقيم موازين الحق والعدل بين الناس حتى لا تذهب إلى من يستغلونها، في مزيد من الإفساد؟!

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [33] المائدة

انظر، كيف اعتبر الله المفسدين في الأرض محاربين لله ورسوله. وتدبر كيف أن عقوبة الإفساد في الأرض، تتدرج من القتل إلى النفي..، والذي يحدد نوع الإفساد والعقوبة المستحقة..، هي الجهات المسئولة عن ذلك.

أليس وجود مثل هذه العقوبات دليلا على أن "الآية القرآنية" جاءت لحماية الناس كافة، الذين يعيشون على هذه الأرض، بصرف النظر عن معتقداتهم، أو أجناسهم جاءت لحماية أموالهم، وأعراضهم، وأبدانهم، وبيئتهم، من أي شيء يهددها؟!

إن المجتمع الذي يحكم أفراده النظام، والتمسك بشريعة ربهم، يكون قادرا على مواجهة تحدياته ومتطلبات عصره؟!

فلو أن المسلمين عرفوا مسئوليتهم، في الشهادة على الناس، ووقفوا على فاعلية وعطاء "الآية القرآنية"، لكانوا اليوم في سباق مع "العمل الصالح" كلما سبقهم، أسرعوا إلى اللحاق به.

إن إيمان المسلم، وإخلاص عبوديته لله تعالى، لا ينفصلان عن عمله الصالح. إن المسلم في سباق مع التغيير والتنمية، نحو مستقبل أفضل، في كافة المجالات. فأين مقومات التنمية التي يحملها المسلمون من أجل تحقيق نهضتهم؟!

وأقول، في هذا السياق، لمن يعتبرون هذا الكلام من باب "جلد الذات"، أقول لهم:

إذا كانت الشريعة تقضي في عقوبة الزانية والزاني بالجلد، ويغفر الله لفاعلها، فإن أقل ما يجب أن يفعله المسلمون، وقد "تفرقوا في الدين" وتخلوا عن مسئولية "الشهادة على العالمين" أن يجلدوا أنفسهم، بالكلام والنصيحة ولعل ذلك يثمر في يوم من الأيام.

لقد جاءت "الآية القرآنية" بشريعة تضبط للناس مقومات حياتهم وتأمرهم بالمحافظة على مصادرها الطبيعية، فلا إفساد لها، ولا إسراف ولا تبذير..، فهناك أجيال قادمة يجب أن توفر لهم حياة مستقرة آمنة، إذا هم ظلوا مستمسكين بدستور "الأخلاق القرآنية" الذي تشربه قلب رسول الله محمد، حتى أثنى الله تعالى عليه بقوله:

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ [1] مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ [2] القلم

وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ [3] وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ [4] القلم

إن دستور "الأخلاق القرآنية"، ينبع من عطاء "الآية القرآنية"، ويهدف إلى إقامة المجتمعات على خُلق "العمل الصالح"، خُلق "التنمية المستدامة".

وإن خلق "التنمية المستدامة" هو خلق توظيف نعم الله [في الآفاق والأنفس] توظيفا قائما على التخطيط العلمي السليم، الذي يحقق للناس سعادتهم في حاضرهم ومستقبلهم:

وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ [56] الأعراف

لقد استخلف الله تعالى الإنسان في الأرض، وهي في غاية الكمال والإبداع صالحة

للحياة الآمنة، لا تعرف تلوثا ولا إفسادا.

وإن ما حدث بين ابني آدم من قتل أحدهما الآخر، قد فرض التشريع الإلهي عقوبة عليه، وعلى الإفساد في الأرض..، وذلك في إطار بيان طبيعة الصراع القائم دوما بين الحق والباطل.

فتدبر ماذا قال الله تعالى في سورة المائدة:

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنْ الْخَاسِرِينَ [30] فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ [31]

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ [32]

فتدبر، كيف اعتبر الله تعالى المفسد في الأرض، كالقاتل للناس جميعا..، وهل بعد إفساد البر والبحر والجو..، بما صنعت أيدي الناس، من فساد؟!

لقد جاءت "الآية القرآنية" تضع الضوابط التي تحمي المجتمعات من إفساد أفرادها في الأرض، بصوره المختلفة. وأول هذه الضوابط، ألا يتفرق أتباع الرسل في الدين:

شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [13] الشورى

ومن هذه الضوابط، تحريم الخروج عن أمر الله تعالى، وعبادة غيره، وقطع ما أمر الله به أن يوصل:

الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ [27] البقرة

ولقد بين القرآن أهمية العمل الصالح، وأثره في المجتمع، ومن ذلك قول الله تعالى

في حق اليتامى:

فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنْ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [220] البقرة

وشملت التحذير والنهي عن التطفيف في الميزان:

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ [85] الأعراف

كما شملت النهي عن تقطيع الأرحام:

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ [22]

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ [23]

ثم تدبر ماذا قال الله تعالى بعدها:

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [24] محمد

ولقد جاءت "الآية القرآنية" تربط الإنسان بالآيات الكونية فهو جزء من هذا الكون. لقد خلق الله تعالى الكون بنظام محكم، مترابط، تتناغم فيه مكوناته، وعناصره ليتخذه الإنسان نموذجا يقتدي به في إسلام وجهه لربه، وفي نظام حياته، فعليه أن يسجد لربه كما يسجد الكون، ولا يعصى أمره، فتدبر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [18] الحج

انظر، وتدبر..، هذا التناغم المحكم، الذي لم يشذ عنه إلا الإنسان: "وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ"..، على هؤلاء الذين خرجوا على النظام الإلهي.

إن نظام الكون نظام متوازن، يقوم على علاقات متناغمة، وتفاعلات محكمة، كل ذرة فيه آية، تعمل ساجدة لخالقها، في منظومة تكاملية مسبحة، فتدبر:

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ [19] الحجر

فكيف يجرؤ مسلم يؤمن بالله، وبفاعلية آية رسوله القرآنية، المعاصرة له، وبقوله تعالى "وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ"، على أن يستخدم المبيدات الكيميائية، في زراعته بدعوى تحسين الإنتاج الزراعي، وقد أثبتت المختبرات المعملية، أن لهذه المبيدات مخاطر جمة، على صحة الإنسان، وعلى جودة سلالة النبات نفسه؟!

إن نظام الكون مخلوق بقدر:

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [49] القمر

فكيف يجرؤ الإنسان على الإفساد في هذه المنظومة المتناغمة، المحكمة، التي خلقها الله على هذه الحال من الإبداع والإتقان، والتقدير..، لصالح هذا الوجود البشري تلك المنظومة المسبحة، تشتكي ذراتها لربها، من فعل هذا الإنسان، الذي يفسد عليها مهمتها المسبحة؟!

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً [44] الإسراء

إن التسبيح: تنزيه لله تعالى عن كل ما لا يليق بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى. وإن من رحمة الله أن جعل الناس لا يفقهون تسبيح ذرات هذا الكون. فماذا لو أن الله تعالى جعلهم يفقهون تسبيح المخلوقات، ولو ساعة من نهار؟!

ويبقى السؤال قائما: هل يحل للإنسان، أن يعيش في هذا الوجود، غافلا عن تسبيح الكون من حوله؟! وإذا كان يحرم عليه ذلك، فلماذا يفسد المسلمون بيئتهم إذن، والله لا يحب الفساد؟!

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ [205] البقرة

إن الإفساد في الأرض له صور كثيرة، وليس القتل وقطع الطريق فقط..، وكلها صور يفعلها الناس يوميا، حتى أصبح الإفساد عادة..، كالتخريب والعبث بالممتلكات العامة، والغش التجاري، والاحتكار، والتلوث البيئي، وتعطيل مصالح الناس، وتعطيل العمل والإنتاج، والتخطيط العشوائي، وتضييع الموارد بالإسراف في استخدامها، وفي كل هذه الصور، لا يقبل الله تعالى توبة المفسد إلا إذا أصلح ما أفسده.

ولكن، أيهما أفضل: أن نفسد ثم نصلح؟!

أم أن الأفضل، بل والواجب شرعا، أن نطيع الله تعالى، ولا نقترب مطلقا من دائرة ما لا يحبه الله تعالى، والله لا يحب الفساد؟!

وهل نضمن أن نعيش لنصلح ما أفسدناه؟!

ألا يعتبر تحريم الله تعالى الإفساد في الأرض، دعوة عالمية لمحاربة كل أنواع "التلوث البيئي"، التي تشكل اليوم أزمة عالمية تهدد الناس جميعا؟!

وإذا علمنا أن هذه الدعوة قد انطلقت من "الآية القرآنية" القائمة بين الناس إلى يوم الدين، أفلا يكون ذلك، دعوة إلى "التنمية المستدامة" التي يتنافس العالم اليوم لتحقيقها في المجالات المختلفة؟!

لقد جاءت "الآية القرآنية"، تلفت نظر الناس، إلى أن هذا الكون لم يُخلق إلا بالحق إنه لم يخلق عبثا..، فلماذا يفسدون في الأرض ويلوثون بيئتهم؟!

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ [115] المؤمنون

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ [38]

مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ [39] الدخان

إن المتدبر لهذه الآيات، يستطيع أن يقف بنفسه على حجم الجرم التي يرتكبه الناس في حق هذه الأرض، بإفسادهم لكل جميل فيها.

ألا يدخل "الهواء" الذي يلوثه الناس يوميا، في سياق قوله تعالى: "وَمَا بَيْنَهُمَا"؟!

ألا يدخل جسد الإنسان، ووظائف أعضائه، وصحته..، وعالم الحيوان، والطيور والنبات، والأنهار، والبحار..، كل هذه العوالم التي يسعى الناس إلى إفسادها بأيديهم... ألا تدخل فيما خلقه الله تعالى على هذا النحو البديع الجميل المحكم؟!

فلماذا لا يحافظ الإنسان على هذه القيم الجمالية، وعلى هذه النعم التي لا تحصى؟!

لماذا يخترق بإفساده هذه المنظومة الجمالية، الساجدة لربها، المسبحة؟!

إنها تصلي كما يصلي المسلمون، وتسبح، وتسجد لربها أفضل مما يفعلون... فلماذا يؤذيها المسلم؟!

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ [41] النور

إننا يجب أن نغير نظرتنا إلى الكون، وأن نحمي البيئة التي نعيش فيها، اتباعا واستجابة لأوامر "الآية القرآنية"، المعاصرة لنا اليوم، والتي تصف أولي الألباب بأنهم هم الذين يقفون على عظم هذه الآيات الكونية، وأنها لم تخلق إلا بالحق..، فلا يكونون أبدا سببا في تلويث بيئتهم أو الإفساد فيها. تدبر قول الله تعالى في سورة آل عمران:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ [190] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [191]

تدبر هذا الفهم الواعي لمعنى "التسبيح": "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ". فإذا كان التسبيح تنزيها لله تعالى عن كل ما لا يليق بأسمائه الحسنى..، فهل يمكن لمسبح أن يفسد ويلوث الكون، الذي يشتكي لخالقه من هؤلاء المفسدين؟!

إن الذي يعيش في هذا الكون، يستحيل أن يفرط في ثرواته أو يعمل على تخريبها... إن كان من أولي الألباب!!

إن السفهاء هم الذين يضيعون ثرواتهم، والنعم التي يعيشون فيها، ثم يذهبون ويطلبون المساعدة من الناس!! أما العقلاء، فيعملون للإفادة من هذه النعم، ولتنمية ثرواتهم، والتخطيط لضمان استمرارها من أجل مستقبل أفضل، للأجيال القادمة. فإذا علمت أن نعم الله تعالى لا تحصى، فماذا أنت فاعل؟!

تدبر هذه الآيات لعلها تجيبك عن هذا السؤال:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنْهَارَ [32]

وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ [33] وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [34] إبراهيم

تدبر هذا السياق، الذي ورد فيه الحديث عن نعم الله التي لا تحصى، وعلاقة هذه النعم بالآيات الكونية. وكذلك تدبر سياق آيات سورة النحل:

وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [15] وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [16]

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [17] وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [18] النحل

ويوجه الله تعالى نظر الناس، إلى أهمية الشكر على هذه النعم، يقول تعالى:

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [14] النحل

فإذا شكر الإنسان ربه على نعمه التي لا تحصى، فإن الله تعالى سيؤتيه مزيدا من نعمه وفضله، فيقول تعالى:

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [7] إبراهيم

إن الإفساد في الأرض، يجعل الكون لا يعطي كل خيراته وبركاته للناس، فتدبر:

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ [66] المائدة

الحقيقة أن أنواع الإفساد في الأرض، التي بينتها "الآية القرآنية" كثيرة، وما سبق بيانه ما هو إلا إشارات، تكتب فيها دراسات مستقلة.

وخلاصة القول:

لقد جاء عطاء "الآية القرآنية" يضع الأصول، والقواعد العامة، التي تنطلق منها البرامج، والمناهج العلمية المختلفة، التي توضع لمواجهة التحديات، وإدارة الأزمات بحكمة وسلام.

فهل وقف علماء المسلمين، على أهمية استلهام عطاء "الآية القرآنية"، لمواجهة التحديات العصرية، ودورها الفاعل في الأخذ بأيدي الناس، إلى صراط ربهم المستقيم الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة؟!

وإذا كان علماء المسلمين، أسرى الفرقة والمذهبية، قد عاشوا مع أزمة التخاصم فيما بينهم..، فهل لم تحمل "الآية القرآنية" إليهم، من العطاء ما يخرجهم من ظلمات الفرقة والتخاصم، إلى نور الوحدة والوفاق؟!

خصائص "الآية القرآنية"

إن التفاعل الحي بين القرآن والكون، بين آيات الذكر الحكيم، وآيات الآفاق والأنفس..، من الحقائق العلمية التي تثبت أن هذا القرآن هو كلام الله يقينا، وآيته الدالة على صدق رسوله، عليه السلام، إلى يوم الدين. هذه الحقائق التي لا تثبت بالظن والروايات..، وإنما بالبراهين قطعية الثبوت عن الله تعالى.

إن المسلم، الذي أقام شهادة "ألا إله إلا الله"، وأن "محمدا رسول الله"، على أساس هذا التفاعل، عليه أن يقيم إيمانه بصدق هذا القرآن، وأنه حقا كلام الله تعالى..، على أساس ما تميز به، عن سائر الكتب، من خصائص جعلته "آية قرآنية"، وحجة إلهية على العالمين إلى يوم الدين.

والحقيقة أن خصائص "الآية القرآنية" تعادل خصائص الكون من حولنا، والتي يصعب حصرها، لذلك سنكتفي بدراسة بعض هذه الخصائص، المتعلقة بصورة مباشرة بـ "النص التشريعي الإلهي"، الذي توجه له الشبهات، ومنها، أنه:

أولا: كتاب الله

ثانيا: وحي إلهي

ثالثا: وذكر حكيم

رابعا: تنزيل رب العالمين

خامسا: بلسان عربي مبين

سادسا: يتلى على الناس

سابعا: الهادي إلى صراط الله المستقيم

ثامنا: واجب الاتباع

أولا: كتاب الله

كلمة كتاب على وزن فعال بمعنى المكتوب، واشتقاقه من كتب بمعنى جمع وضم لأن الكتاب تُجمع أوراقه وحروفه. ولقد أمر الله تعالى رسوله محمد، عليه السلام، أن يدون نصوص آيته القرآنية في كتاب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجعله حجة الله على الناس إلى يوم الدين، ولم يجعل ذلك لغيره، مما اقتضاه عصر التنزيل واكتمال الدين.

لذلك بدأ الله كتابه، بعد الفاتحة، بالإشارة إليه باعتباره كتابا كاملا نشاهده أمامنا.

الم [1] ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ [2] البقرة

إن تدوين "النص التشريعي الإلهي" في كتاب، سنة جميع الرسل، فتدبر:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [213] البقرة

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ [145] الأعراف

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ [79] آل عمران

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [157] الأعراف

لقد حفظ الله خبر بعثة رسوله محمد، في التوراة والإنجيل، فكان حجة على أهل الكتاب في عصر الرسالة. لذلك فإن العلم الذي يرجى توارثه، يجب أن يدوّن في كتاب ثم يحفظ الله منه ما شاء أن يحفظ، على مر العصور، ليقيم حجته على الناس.

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [1] خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [2] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ [3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [4] عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [5] العلق

ولكن يبدو أن قضية العلم بوجوب تدوين النص التشريعي الإلهي فور نزوله تحتاج إلى قلوب حية، آلياتها غير مغيبة:

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [29] ص

لقد جاء القرآن لينسخ كل الكتب الدينية، ويكشف عما أصابها من تحريف وتزوير.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ [79] البقرة

إنه تحذير إلهي، لا يجرؤ من تَدبّرَه، أن ينسب إلى الله، أو إلى رسوله نصا تشريعيا غير الذي دل بذاته على أنه من عند الله تعالى.

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ [17] الشورى

ثم تدبر ماذا قال الله تعالى، بعد ثلاث آيات، محذرا:

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [21] الشورى

إن نصوص الدين الإلهي، وحجيتها، لا تخضع مطلقا لاجتهادات البشر، ومدارسهم المذهبية، في التصحيح والتضعيف، إنها تقوم على الحجة والبرهان:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [4] الأحقاف

إنه ميثاق جميع الأنبياء والرسل، ألا يقولوا على الله إلا الحق:

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ [169]

ويخاطب الله تعالى رسوله الخاتم محمدا، عليه السلام، مبينا هذه الحقيقة، حتى لا يقع أتباعه فيما وقع فيه أهل الكتب السابقة.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [32] فاطر

إن "الكتاب" هو الذي سيرثه المسلمون جيلا بعد جيل، فهل بيّن الله تعالى أن أتباع رسوله الخاتم عليه السلام، سيرثون أيضا نصا مدونا في "كتاب" غير النص القرآني؟!

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [155] الأنعام

ولا اتباع بدون إعمال آليات عمل القلب، لذلك قال تعالى:

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [24] محمد

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً [82] النساء

ولقد احتوت نصوص "الآية القرآنية" أحكام الشريعة الإلهية، التي أمر الله تعالى الناس أن يتمسكوا بالعمل بها، فهل أمر الله باتباع نصوص غيرها، مما أوحاه إلى رسوله، في فترة التنزيل واكتمال الدين؟!

تدبر هذه المجموعة من الآيات:

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ [114]

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [115]

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ [116] الأنعام

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [117] فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ [118]

وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ [119] الأنعام

ولكن الشيطان يحاول جاهدا، مع أتباع الرسل، تزيين تحريف الكتب الإلهية، ليتخذ الأتباع هذا التحريف دينا، غير الدين الذي أنزله الله. ومن هذه التحريفات قولهم:

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [80] البقرة

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ [23] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [24] آل عمران

إن كتاب الله تعالى، آية رسوله القرآنية، التي حملت نصوص الشريعة الإلهية إلى العالمين، والذي جعله الله حجة على الناس إلى يوم الدين. لذلك كان هو الكتاب الوحيد الذي يكفر منكر نصوص آياته، أو حتى المستهزئ.

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً [140] النساء

وهل هناك في كتاب الله، حكم صريح بكفر من ينكر، أو يخوض في محتوى كتاب من كتب البشر، التي صنعتها أيديهم، ومذاهبهم المختلفة؟!

إن الله تعالى لم يجعل من أصول الإيمان، أن يؤمن الناس بغير الكتاب الإلهي.

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [52] الأعراف

ولم يأمر الله تعالى الناس، بوجه عام، أن يؤمنوا بغير الكتب الإلهية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً [136] النساء

أما أن يقال: إن الإيمان بالرسل يعني الإيمان بما نسبه الرواة والمحدثون إليهم من روايات، كل حسب مدرسته في التصحيح، والتضعيف..، فهذا ادعاء لم يستطع أصحابه، عبر قرون من الزمان، أن يقيموا الدليل على صحته!!

إن "النص التشريعي الإلهي" كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [1] هود

إن "النص التشريعي الإلهي"، كتاب إلهي، من خصائصه أنه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم.

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [1] إبراهيم

إن "النص التشريعي الإلهي"، كتاب إلهي، فيه بيان لكل شيء.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [89] النحل

تدبر العلاقة بين إخبار الله تعالى بشهادة رسول الله على قومه: "شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ" وبين موضوع هذه الشهادة: "..الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ".

ولو أن موضوع هذه الشهادة، كان يشمل نصا تشريعا ثانيا باسم "الأحاديث النبوية" لكان من المنطقي أن تدوّن هذه الأحاديث، كما وكيفا، في عصر الرسالة، كي تتساوى حجيتها مع كتاب الله تعالى، على من عاصروا الرسول، وعلى من جاءوا من بعدهم

وبذلك تتحقق الشهادة على وجهها التام والكامل!!

إن شهادة رسول الله، عليه السلام، كانت على نصٍ حاضرٍ أمام الناس، يعلمون حدوده وعدد كلماته.

ولا شك أن هذا النص قد بلغه رسول الله تاما كاملا من غير نقص ولا تحريف ليقوم المسلمون، من بعده، بتفعيل شهادتهم على العالمين على أساسه.

وهنا تظهر حكمة الحفظ الإلهي لهذا النص، فلا يجد المشهود عليهم مجالا للطعن فيه إلى يوم الدين.

والسؤال: هل يمكن لنص تشريعي إلهي، ينزل به جبريل عليه السلام، ثم يترك رسول الله تدوينه، وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده..، فيأتي المحدثون بعد قرن ونصف قرن من الزمان، ليقوموا هم بموضوع هذه الشهادة حسب مدارسهم المذهبية المختلفة؟!

إن ما نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله، هذه بعض خصائصه:

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [102] النحل

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [23] الزمر

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [7] آل عمران

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ [6]

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ [7] يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [8] الجاثية

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [49] فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ [50] المرسلات

إن "النص التشريعي الإلهي" يستحيل أن يكون له عوج، كيف وهو الهادي إلى صراط الله المستقيم؟!

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا [1] الكهف

إن "النص التشريعي الإلهي"، هو الكتاب الذي سيشتكي رسول الله قومه أنهم اتخذوه مهجورا، فهل بلغهم غير القرآن، فهجروا القرآن، وتمسكوا بأحاديثه النبوية؟! تدبر هذا السياق القرآني المحكم:

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً [27]

يَا وَيْلَتا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً [28] لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً [29]

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً [30]

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً [31]

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً [32] الفرقان

إنه لا يصح إسلام المرء، إلا إذا كان على بينة بطبيعة وخصائص نصوص الدين الإلهي واجبة الاتباع، وأنها الحق المنزل من الله تعالى، فهل يمكن أن ينزل الله تعالى على رسوله نصوص شريعة على غير صفة الحق الذي نزل به القرآن؟!

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [19] الرعد

ألا تكفي هذه الآيات، لبيان أن "النص التشريعي الإلهي"، الذي أنزله الله على رسوله محمد، عليه السلام، وجعله آيته العالمية الدالة على صدق بلاغه عن الله يستحيل أن يكون غير القرآن العظيم، الذي حفظه الله في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟!

ثانيا: وحي إلهي

لقد بين الله تعالى في كتابه الحكيم، أن كلامه مع البشر، إما أن يكون وحيا، أو من وراء حجاب، أو بإرسال ملك رسول.

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ [51] وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [52] الشورى

ولقد بين الله تعالى أن الرسول الملك الذي أنزل هذا القرآن على قلب رسوله محمد عليه السلام، هو الروح الأمين.

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [192] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ [193] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ [194] بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [195] الشعراء

ثم بين سبحانه أن هذا الروح الأمين هو جبريل، عليه السلام.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [97] البقرة

وإن المتدبر لكتاب الله، يعلم علم اليقين، أن رسول الله، كان يتلقى أيضاً من ربه وحياً غير النص القرآني، يتعلق بمواقف وأحداث فترة التنزيل واكتمال الدين، فقد يسبق نزول القرآن اتصال بين الله تعالى وبين رسوله، في أي شأن من شئون الدين ثم ما شاء الله أن تتضمنه "الآية القرآنية"، من موضوع هذا الاتصال، ينزل به بعد ذلك وحيا قرآنيا.

مثال ذلك قول الله تعالى:

إِذْ يُرِيكَهُمْ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [43] الأنفال

وتدبر قوله تعالى:

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً [27] الفتح

يفهم من هذه الآيات أن الله تعالى أرى رسوله محمداً أولا رؤيا منامية، ثم نزلت بعدها هذه الآيات تخبر عن موضوع هذه الرؤيا، والعبرة منها، دون تفصيل لها.

وقد يحكى رسول الله، عليه السلام، تفصيلات هذه الرؤيا لصحبه الكرام، وقد تنتشر بينهم، ثم تتناقلها الأجيال كروايات، وتراث ديني، وليس نصا تشريعيا إلهيا واجب الاتباع.

ولقد أمر الله رسوله بعدم السماح للمنافقين بالخروج معه طلبا للغنائم:

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً [15] الفتح

فيفهم من السياق أنه قد حدث بين الله ورسوله اتصال، كما حدثت حوارات بين الرسول والمنافقين..، ثم أنزل الله تعالى بعدها وحيا قرآنيا بخلاصة ومحصلة ما شاءت حكمته أن تتضمنه رسالته من أحداث عصر الرسالة.

وفي موضع آخر يبين القرآن الكريم أن المسلمين، في عصر الرسالة كانوا يستقبلون قبلة لم يخبرنا الله عن مكانها، وإنما أخبرنا فقط عن الحكمة من تغييرها.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [142] وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [143] البقرة

ولا شك في أنه قد حدثت مواقف كثيرة، وحوارات ومجادلات، قبل تحويل القبلة ثم نزل الوحي القرآني بما يجب على الناس معرفته في هذه المسألة.

ولقد اختلف علماء المسلمين حول هذه المسألة، وهي مسألة لا يتعلق بها أمر، ولا يتوقف عليها حكم، وقد رحمنا الله من البحث والخوض فيها، بإنزال وحيه القرآني بما يجب علينا أن نعلمه بشأنها.

ثم ما الذي سيعود على المسلمين من معرفة أية قبلة كان المسلمون الأُول يستقبلونها..، وهل نسخت أم لم تنسخ..، وما الدليل على النسخ؟!

لقد انتهت القضية في عصر الرسالة، عصر التنزيل واكتمال الدين، واستقبل المسلمون المسجد الحرام، ولا يزالون يستقبلونه إلى يومنا هذا..، وإلى يوم الدين.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ [144] لبقرة

إن الله تعالى لم يطلب من المؤمنين معرفة، ولا اتباع، غير ما جاء بخلاصته الوحي القرآني في هذه المسألة، أما ما نقله الرواة من أخبار أخرى، فهو من التراث الديني الذي لا يحمل شريعة إلهية واجبة الاتباع.

وفي موضع آخر يبين القرآن الكريم أن إحدى أزواج رسول الله، عليه السلام، قد أفشت حديثا دار بينها وبين رسول الله، ثم انتشر هذا الحديث بين أهل البيت.

ولا شك أنه قد أخذ مساحة زمنية يتداول فيها. فأخبر الله تعالى أولا رسوله، عليه السلام، بما حدث من أزواجه، ثم أنزل بعد ذلك وحيا قرآنيا بما شاء سبحانه أن يشمله كتابه الحكيم من أخبار عن هذه الواقعة. تدبر قول الله تعالى في سورة التحريم:

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ [3]

لقد كانت تصرفات رسول الله اليومية، فيما عدا الوحي القرآني، تخضع للقانون البشري، في أعلى مراتب الكمال البشري. ويشير القرآن إلى ذلك في كثير من آياته.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [67] الأنفال

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ [161] آل عمران

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [113] التوبة

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [1] التحريم

إن التفاعل الاجتماعي، بين رسول الله وقومه، قد تغلب عليه صفة رسول الله البشرية، فينزل الوحي القرآني، ليصحح ذلك، ويثبته في "آيته القرآنية"، كتفعيل وتصديق لقوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً [110] الكهف

لقد بلّغ رسول الله رسالته كاملة غير منقوصة، وإن ما نزل عليه من وحي قرآني هو ما شاء الله أن تشمله "آيته القرآنية"، من مجموع تفاصيل وأحداث عصر الرسالة عصر التنزيل واكتمال الدين، وهو ما يجب على الناس معرفته واتباعه، لذلك تعهد الله تعالى بحفظ نصوص هذه "الآية القرآنية" إلى يوم الدين.

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً [27] الكهف

فرسول الله مأمور أن يتلو على الناس ما أوحاه إليه ربه من وحي قرآني، ولا شك أن صحابته قد فعلوا ذلك، والتزموه. نعم، لقد تحدث رسول الله مع قومه وأهل بيته بأحاديث كثيرة، لا يشك في ذلك عاقل، ولكن الذي أمره الله تعالى بتلاوته وتدوينه هو نصوص "آيته القرآنية"، فلم يكن كلام رسول الله في يوم من الأيام موضع اتهام أو تكذيب أو

إعراض من قومه، سواء كان ذلك قبل بعثته أو بعدها.

إذن فمتى حدث هذا التكذيب من قومه وهذا الإعراض؟! وعلى أي أساس اتهموه بالضلال والجنون؟! يقول الله تعالى:

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى [1] مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى [2] وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى [3] إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى [4] عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى [5] النجم

لقد مكث رسول الله بين قومه عمره، فهو صاحبهم الذي عرفوه جيدا، وعرفوا حديثه ويعلمون جيدا أسلوبه..، ولا شك أنهم عرفوا الفرق بين كلامه وكلام الله، إذن فلماذا لم يصدقوه واتهموه بالضلال والغواية، "مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى"؟!

لم يتهم رسول الله، عليه السلام، بالضلال والغواية، إلا عندما نطق بالقرآن وأعلن أنه رسول رب العالمين.

لذلك نزل القرآن يدافع عنه، وبين أنه لم ينطق بهذا القرآن عن هواه "وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى"..، وإنما نطق به عن وحي أوحاه الله إليه "إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى".

وهناك من أتباع الفرق والمذاهب المختلفة من فهم قوله تعالى: "وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى"، بمعنى: كل ما نطق به رسول الله من كلام، بصورة مطلقة!!

وهذا فهم غير سليم، ذلك أن الله تعالى لم يوجه خطابه أصلاً للمؤمنين، وإنما خاطب المكذبين الذين لم تكن قضيتهم مع رسول الله هي أحاديثه، وإنما كانت قضيتهم هي ما نطق به رسول الله من قرآن، جاء ينسبه إلى الله تعالى.

إن محبة رسول الله، عليه السلام، بدهية إيمانية، والغلو فيها فتنة!!

إن موضع اتهام المشركين لرسول الله، الذي أشارت إليه سورة النجم، كان من أجل ما اختصه الله تعالى به من وحي قرآني، قد جعله الله حجة على العالمين إلى يوم الدين.

ولقد بينت سورة التكوير ذلك ردا على اتهام المشركين لجبريل، عليه السلام، الذي نطق بهذا القرآن قبل أن ينطق به رسول الله، فيقول الله تعالى:

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [19] ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ [20] مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [21] وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ [22] التكوير

إن قوله تعالى: "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ"، جاء بعد قسم بآيات الله، لبيان أن القضية التي كانت محل جدل وإنكار، والتي نزل القرآن يبين وجه الحق فيها، كانت قضية الوحي القرآني، الذي نزل به جبريل، عليه السلام، فهو الذي يعود إليه الضمير "إِنَّهُ لَقَوْلُ.."، ثم جاء بعد ذلك الدفاع عن الرسول في قوله تعالى: "وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ".

وتدبر قول الله تعالى:

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [19] الأنعام

تدبر قوله تعالى: "وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ"، حيث يبين الله تعالى أن موضوع الشهادة الذي أمر الله تعالى رسوله أن ينذر الناس به، هو هذا القرآن.

ويقول الله تعالى:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ [3] يوسف

تدبر قوله تعالى: "بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ"، فالمرجع الحق، لأخبار الأمم السابقة وقصص الأنبياء..، هو القرآن الحكيم.

ومن خصائص وحي الله تعالى إلى رسوله محمد، عليه السلام، أن نصوصه واجبة الاتباع، إلى يوم الدين، يجب أن تحفظ، تدبر قوله تعالى:

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ [12]

تدبر قوله تعالى: "تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ".

إنه يحدد طبيعة الوحي المنزل على رسول الله، كما وكيفا، بحيث يستطيع رسول الله أن يتعرف بعضه من كله.

لذلك جاء بعدها ببيان الكل فقال تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [13] هود

وهذا ما بينه قوله تعالى:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [85] وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً [86] إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً [87] الإسراء

تدبر قوله تعالى: "لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ"، ثم قوله بعدها:

قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً [88] الإسراء

تدبر قوله تعالى: "أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ".

إنه يحدد طبيعة وخصائص المصدر التشريعي الذي يستقي منه المسلم أحكام دينه والذي شاءت إرادة الله أن يحفظه، في الوقت الذي لم يحفظ فيه قصص ومرويات ومدونات البشر.

ولقد حمل إلينا الوحي القرآني أنباء من قصص الرسل السابقين، فيقول الله تعالى:

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ [44] آل عمران

وتدبر قول الله تعالى:

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [49] هود

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ [102] يوسف

إن كل ما هو غيب عنا، من أحداث تاريخية، لا قبل لنا بمعرفتها إلا من مصدر إلهي قد ثبتت صحة نسبته إلى الله يقيناً.

لذلك يحذر الله تعالى الناس من ادعاء النبوات المفتراة، والمصادر التشريعية التي ما أنزل بها من سلطان، بدعوى أنها من وحى الله تعالى إليهم!!

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [93] الأنعام

إن النص التشريعي الموحى به إلى رسول الله، والمأمور بتبليغه للناس، والذي يجب أن يجتمع حوله المسلمون كافة هو النص القرآني.

لذلك يبين الله أن مهمة رسوله هي اتباع هذا القرآن، والإنذار به:

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيِّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ [50] الأنعام

وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [51]

تدبر قوله تعالى: "وَأَنذِرْ بِهِ"، أي بهذا الوحي المذكور من قبل: "إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى"، ولا يعقل أن يكون هناك وحي ثان واجب الاتباع، ثم يترك الله تعالى مهمة حفظه لرواة الفرق والمذاهب المختلفة؟!

ومما يؤكد أن نصوص الوحي الإلهي لا تدخل من البشر في صياغتها، ولا في تعديلها، ولو كانوا رسلا، قوله تعالى:

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [203] وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [204] الأعراف

تدبر قول الله تعالى: "قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ"، ثم قوله بعدها مبينا ماهية هذا الوحي: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ.."، فالوحي القرآني: "بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ".

وتدبر قول الله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [15]

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [16] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ [17] يونس

تدبر قوله تعالى: "مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي"، وعلاقته بقوله تعالى: "قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ.." ثم بقوله تعالى: "فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ..". فهل يجرؤ مسلم، بعد هذا البيان، أن يدعي نسبة نص تشريعي إلى الله تعالى، دون برهان قطعي الثبوت عن الله عز وجل يثبت صحة هذا الادعاء؟!

بل ولقد حذر الله تعالى الناس أن يحلوا، ويحرموا..، من تلقاء أنفسهم، دون إذن من الله تعالى:

وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [116] النحل

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ أَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ [59] يونس

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ [60] يونس

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [33] الأعراف

فالآيات تحذر الناس جميعا، من التقول على الله بغير علم، ونسبة مصادر تشريعية إليه، بدعوى أنه عز وجل أمر بها، دون برهان من الله يثبت صحة هذا الادعاء.

وإنه بحصر جميع آيات الذكر الحكيم، المتعلقة بما أوحاه الله إلى رسوله محمد من نص تشريعي، أمره أن يدونه في كتاب..، لم نعثر على دليل يفيد أن الله أوحى إلى رسوله نصا تشريعيا واجب الاتباع غير النص القرآني، الذي تعهد الله بحفظه إلى يوم الدين.

وفي هذا السياق، أذكر القارئ الكريم، أن هذه الدراسة تتعلق بخصائص "النص التشريعي الإلهي"، الذي أنزله الله على رسوله، وأمر الناس باتباعه، وتعهد بحفظه للناس جميعا إلى يوم الدين..، وليس بكيفيات الأداء العملي، لما أجمله هذا النص من أحكام والتي تعلمها المسلمون عمليا، بالتقليد والمحاكاة، عبر منظومة التواصل المعرفي... وليس من نصوص مدونة في الكتب، وإلا لجاءتنا هذه النصوص محفوظة بحفظ الله تعالى للنص القرآني ذاته الذي أمر بأدائها!!

ثالثا: ذكر حكيم

ولقد وصف الله تعالى وحيه القرآني بالذكر، فهو يُذكر الناس بربهم، يحضهم على مذاكرة شريعتهم، وتذكرها.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [104] يوسف

فالضمائر "عليه"، "إن هو"، تعود كلها إلى القرآن الكريم بدلالة السياق.

ولقد لجأ الكافرون المعاندون، بعد أن عجزوا عن معارضة الوحي القرآني، إلى السباب واتهام الرسول بالجنون، فقالوا:

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ [6] الحجر

وهذا حال كل مكابر يهرب من المواجهة الفكرية، فعندما يعجز عن إقامة الحجة والبرهان، يلجأ إلى التجريح الشخصي لمعارضيه، ونشر الشائعات الباطلة عنهم!!

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ [51] وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [52] القلم

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ [58] آل عمران

تدبر: لقد عطف الله تعالى الذكر على الآيات، لبيان أن هذه الآيات التي ذكرت قصص وأنباء الأمم السابقة، هي ما يجب على الناس، في هذا السياق، تذكره ومذاكرته واتباعه.

وردا على وصف القرآن بالشعر، بين الله أنه ليس شعرا:

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ [69] يس

تدبر قوله تعالى: "إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ".

إن النص التشريعي الإلهي الحكيم، واجب الاتباع، والذي أشرف على تدوينه رسول الله..، هو النور الذي يفرق الله به بين الحق والباطل، لذلك أمر الله تعالى بالمداومة

على قراءته، فسمي "قرآناً"، وبتذكره ومذاكرته والتذكير به، فسمي "ذكراً".

ولقد سمي كتاب الله بالذكر، في آيات كثيرة، لأنه يتضمن تذكير الناس بما هم في غفلة عنه..، من دلائل التوحيد، وأخلاق النبوة، وأحكام الشريعة، وما يتفرع عن ذلك من سلوك عملي يؤكد صحة إيمان المرء.

وهناك علاقة ملازمة، وملابسة، بين الذكر الحكيم، ورسول الله محمد، عليه السلام الذي جاء يبلغه للناس، فتدبر:

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً [10] رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً [11] الطلاق

لقد جعل الله مفهوم أحد الاسمين "الذكر" مفسرا قائما على مفهوم الآخر "الرسول" لبيان أن القرآن هو الذكر الحكيم والرسول القائم الدائب، المذكر للناس إلى يوم الدين:

فـ "الذكر" اسم من أسماء الكتاب الإلهي: "قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً"، الذي بلغه رسوله محمد، عليه السلام: "رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ"..، جاء يحمل خاصية من خصائص هذا الكتاب. وكثيرا ما تأتي صفة الكتاب معطوفة عليه.

فوصف الله تعالى الكتاب بالفرقان، فقال تعالى:

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [53] البقرة

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ [3]

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ [4] آل عمران

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً [1] الفرقان

كما وصف الله الكتاب بالنور، فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً [174] النساء

ووصف الله الكتاب بالحكمة، وجعلها مما يستنبط من تلاوة الآيات وتعلم الكتاب:

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ [151] البقرة

لذلك فرق الله تعالى بين إنزال الآيات، وتعلم الكتاب، واستنباط الحكمة من هذه الآيات، وليس من مصدر خارجي آخر..، وجعل ذلك سنة جميع الأنبياء.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ [81] آل عمران

ولأهمية هذه "الحكمة" جعلها الله صفة للكتاب، منزلة معه، فقال تعالى:

وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً [113] النساء

لذلك فهي مما يتلى مع آيات الكتاب في البيوت، فقال تعالى في سورة الأحزاب:

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً [34]

وها هو رسول الله يشتكي قومه إلى ربه، فقد هجروا القرآن الحكيم، هجروا تذكره والتذكير به.

وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً [27] يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً [28]

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً [29]

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً [30] وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنْ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً [31] الفرقان

ويبين الله تعالى أن المشكلة ليست في فهم الذكر، الذي أمر عز وجل باتباعه، فقد يسره للتدبر والدراسة، والمذاكرة..، وإنما المشكلة في وجود المدكر"، فيقول تعالى:

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [17] القمر

إن المشكلة في عدم مذاكرة "الذكر"، و"تذكره"، وأخذ الموعظة والعبرة منه، كيف وهو خاصية من خصائص هذا القرآن، فتدبر:

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ [1] ص

فالقرآن الحكيم، يرد الناس إلى فطرتهم، فيتذكرون ما كانوا عنه غافلين..، بآيات قرآنية، دونت فور نزولها، في كتاب، جعله الله تعالى "آية قرآنية" ليكون حجة على العالمين إلى يوم الدين.

لذلك فإن من أنكر هذا "الذكر" فله العذاب العظيم، فتدبر:

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً [99] مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً [100] خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً [101] طه

إن إخراج الناس من الظلمات إلى النور مهمة الرسول الدائم القائم بين الناس إلى يوم الدين، وهو الذكر الحكيم. لذلك فإن مادة فعل "أنكر" و"كفر"..، لم ترد في كتاب الله تعالى، في سياق الحديث عما يجب اتباعه نصا تشريعيا إلهيا...، إلا وكانت تخص هؤلاء الذين ينكرون هذا "الذكر الحكيم":

وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ [50] الأنبياء

لأنه الكتاب الوحيد الذي تعهد الله تعالى بحفظه، فلا يأتيه الباطل:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ [41] لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [42] فصلت

إن الوحي القرآني، هو ما شاء الله تعالى أن تشمله "الآية القرآنية" من نصوص الدين

الإلهي، ملة وشريعة، لتكون ذكرا للعالمين، إلى يوم الدين.

رابعا: تنزيل رب العالمين

لقد نزل القرآن الكريم، آية للعالمين، وشفاء ورحمة للمؤمنين..، شفاء من أمراض القلوب، ومن علل الأبدان..، وذلك بمنهجه القويم، ونظامه الحكيم، وشريعته الهادية إلى صراط الله المستقيم. تدبر قول الله تعالى في سورة الإسراء:

وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً [82]

لقد نزل القرآن الحكيم، يحمل حجيته في ذاته، وخصائصه، وفاعليته، وفق دواعي الحق التي اقتضت نزوله، فكان حقا في نزوله، وحقا في موضوعه.

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً [105] الإسراء

إن من خصائص النص التشريعي الإلهي أنه حق، لا يأتيه الباطل مطلقا، فلا يمكن أن يتركه الله تعالى بين أيدي رواة الفرق والمذاهب المختلفة، ليحفظوه هم حسب مدارسهم في التصحيح والتضعيف، والجرح والتعديل.

تدبر قوله تعالى: "وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ". وحتى لا تنسب إلى رسول الله أقوال وأحاديث، ليست من رسالته، وآيته القرآنية..، عقب بقوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً".

ثم جاء ببيان وتحديد واضح لموضوع هذا الحق، الذي على رسول الله أن يبلغه ويقرأه على الناس، وهو القرآن الحكيم، فقال تعالى:

وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً [106] الإسراء

فالمنزل على رسول الله، عليه السلام حق، حق في منهجه، وحق في نصوص شريعته، وحق في أخباره، وحق في تعهد الله تعالى بحفظه.

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً [81] الإسراء

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ [2] الزمر

تدبر العلاقة بين إنزال القرآن وإنزال الكتاب بالحق، وإخلاص العبودية لله تعالى.

والكتاب الحق لا يحمل إلا أحكام شريعة حقة، علمها رسول الله، وعلمها صحبه الكرام، رضي الله عنهم أجمعين، على وجه الدقة والتحديد.

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً [105] النساء

تدبر العلاقة المحكمة بين النص التشريعي الإلهي، "الكتاب الحق"، وما حمله من أحكام الشريعة، التي عرفها رسول الله على وجه التحديد، وكأنه عاينها معاينة لا لبس فيه ولا غموض، " بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ".

وهذا دليل على أن أحكام الشريعة الإلهية، نصوص محكمة، يستحيل أن يختلف المسلمون حول حجيتها، وصحة نسبتها إلى الله تعالى، وليس فقط إلى رسوله، لذلك لا يمكن أن تخضع حجيتها لمذاهب العلماء، ومدارسهم الفقهية المختلفة.

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ [37] الرعد

ولكون هذا الكتاب المنزل، هو رسالة الله للعالمين، جعله الله "آية قرآنية" يعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثلها.

وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [23] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [24] البقرة

قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً [88] الإسراء

ويبين الله تعالى أن الذي كان يتنزل على رسول الله، عليه السلام، من نصوص الدين، واجبة الاتباع، هي الآيات المكونة لآيته القرآنية.

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [9] الحديد

فهل يعقل أن تكون هناك نصوص شريعة إلهية واجبة الاتباع، ككتاب الله، نزلت أيضا على رسول الله، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور..، ولا يشير الله تعالى صراحة إلى اسمها، وخصائصها، وعدد نصوصها..، كما ذكر ذلك بالنسبة لآيات الذكر الحكيم؟!

والكتاب المنزل هو الذي أمر الله تعالى الناس بالإيمان به، والاعتصام بحبله، وهو الهادي إلى صراطه المستقيم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً [174] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً [175] النساء

ويبين الله تعالى أن "المنزل" على رسوله، عليه السلام، خصائصه واحدة، لا مجال للاختلاف بشأنها، أو الشك فيها.

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُمْتَرِينَ [94] وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنْ الْخَاسِرِينَ [95] يونس

فهل يعقل، بعد هذا البيان الواضح والصريح، أن ينزل الله تعالى نصا تشريعيا ثانيا لاستكمال ما نقص من أحكام كتابه..، ثم لا يحفظه كما حفظ كتابه، ويتركه في أيدي الرواة، ليأتيه الباطل، من بين يديه ومن خلفه..، بدعوى أن جهابذة المحدثين قد استطاعوا أن يفصلوا الحق عن الباطل، كل حسب مدرسته في الجرح والتعديل والتصحيح والتضعيف؟!

إن الاتباع الحق، لما كان عليه رسول الله، وصحبه الكرام، لا يمكننا معرفته إلا من خلال نصوص "الآية القرآنية"، المعاصرة لنا اليوم، والحجة القائمة بيننا مقام الرسول نفسه. والله تعالى يقول فيها:

وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ [55] أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ

السَّاخِرِينَ [56] الزمر

ويبين الله ماهية وخصائص هذا المنزل، وأنه آيات، بقوله تعالى بعد ذلك:

بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ [59] الزمر

ونلاحظ أن هذه الآيات قد بدأت بقوله تعالى:

قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [53] الزمر

وعندما اتهم الكافرون رسول الله، عليه السلام، بأن الذي أنزل عليه أساطير الأولين..، لم يكونوا يعلمون شيئا عن وجود مصدر تشريعي إلهي آخر، غير هذا القرآن الذي أنزل على الرسول، وإلا لجعلوه أيضا محل سخريتهم!! فتدبر:

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [5]

ولقد رد الله تعالى هذه الأباطيل بقوله بعدها:

قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً [6] الفرقان

ولقد طلب الكافرون من رسول الله، عليه السلام، أن يأتي بآيات حسية، فهل أجاب الله طلبهم؟! لقد بين لهم أن عصر الآيات الحسية قد انتهى، وجاء عصر "الآية القرآنية" العقلية.

وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ [50] أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [51] العنكبوت

ومن خصائص الكتاب أن أدلة وجوب اتباعه من داخله وليست من خارجه. وهل يمكن أن ينزل الله على رسوله نصا تشريعيا ثم لا يشرف بنفسه على تدوينه؟!

كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [2]

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ [3]

خامسا: بلسان عربي مبين

إن من خصائص القرآن التي تميزه عن سائر الكتب الإلهية، أن "اللسان العربي المبين" الذي نزل به، هو جزء من آيته الدالة على أنه من عند الله تعالى.

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [192] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ [193] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ [194] بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [195] الشعراء

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ [7] الشورى

حم [1] وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ [2] إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [3] وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ [4] الزخرف

يفهم من آية سورة الشعراء، أن رسول الله قد تلقى القرآن بقلبه، من جبريل عليه السلام، وهذا يبين أهمية الدور الذي يجب أن يقوم به القلب، وآليات عمله، في التعامل مع هذا القرآن وتدبر آياته.

لذلك أمر الله تعالى بالإصغاء إلى القرآن، بأن يستمع القلب إليه، وليس الأذن فقط.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [204] الأعراف

لذلك عندما أمر الله تعالى رسوله بقراءة القرآن، ربط سبحانه بين القراءة والعلم الذي محله القلب، مستودع العلوم والمعارف، للإعلان عن عصر جديد، تقوم حجة الله تعالى فيه، على البرهان العلمي.

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [1] خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [2]

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ [3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [4]

عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [5] العلق

لقد نزل القرآن، بلسان عربي مبين، لتتناغم نصوصه مع مستودع العلوم والمعارف

التي حملها قلب رسول الله، ليكون لهذا اللسان شأن عظيم بين الألسن.

لقد اختار الله تعالى "اللسان العربي"، لكونه أفصحَ الألسن، وأكثرها تحملا للمعاني مع إيجاز لفظه..، ليكون هو اللسان الذي تقوم عليه آية رسوله العالمية، هذا اللسان الذي كان محصورا في منطقة صغيرة من العالم، وقد كان من الممكن أن يندثر، لولا اصطفاء الله تعالى رسوله من هذه المنطقة، وإنزال كتابه بلسانه، ولسان قومه.

لذلك فإن القرآن بوصفه "آية إلهية"، ورسالة عالمية، يفرض على الناس جميعا تعلم اللسان العربي، فبدونه لن يستطيع الإنسان أن يقف على "آيته"، وسيتعامل معه باعتباره نصا إلهيا تشريعيا، كباقي النصوص التي نزلت بها الكتب السابقة، المنفصلة عن الآيات الحسية التي أيد الله تعالى بها رسله.

لقد عُرِف العرب، بفصاحة اللسان، وإحكام البيان..، فجاءت آية رسول الله الخاتم محمد، عليه السلام، من جنس ما برعوا فيه، وكان أملك لنفوسهم، وقلوبهم. وعندما أخبرهم الله تعالى أن نصوص هذه "الآية القرآنية" لن يستطيعوا أن يأتوا بمثلها، وأنها جزء من آية رسوله محمد، بل هي القاعدة التي تنطلق منها فاعلية "آيته القرآنية"... ظنوا أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله، فقالوا:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ [31] الأنفال

لقد جمعوا القوى التي ظنوا أنها يمكن أن تعارض هذا القرآن..، فلم ينجحوا وخاب ظنهم. وكيف لا، والله تعالى القائل:

وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [23]

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [24] البقرة

وتدبر قوله تعالى:

قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً [88] الإسراء

لقد حاول، ويحاول، بعض الناس، أن يخوضوا تجربة الإتيان بمثل هذا القرآن ظنا منهم أنهم بذلك ينالون شرف معارضة القرآن، وإن لم يفعلوا!!

والحقيقة أنهم بفعلهم هذا، لا ينالون إلا الخيبة والعار، بل ويثبتون بمحاولاتهم هذه صدق الله فيما أخبر، وصدق رسوله فيما بلغ..، ويا ليتهم يفعلون ويفعلون..، ليزداد الناس إيمانا فوق إيمانهم، ويقينا فوق يقينهم.

فإذا كان هذا هو قدر اللسان العربي، عند الله تعالى، وتلك هي مكانته، فهل فهم المسلمون ذلك؟! هل فهموا أن نعمة حفظ الله تعالى لذكره الحكيم، قد نالها أيضا هذا اللسان العربي المبين؟!

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [9] الحجر

هل فهم المسلمون أن اللسان العربي الذي يتحدثون به ليل نهار، هو الذي حمل رسالة الله الخاتمة، و"آية" رسوله، الدالة على صدقه، والقائمة بين الناس إلى يوم الدين والتي يتعبدون الله تعالى بها؟!

إن اللسان العربي المبين، مفتاح فهم "الآية القرآنية"، الذي كان يجب على علماء المسلمين كافة أن يُعلّموه الناس، وأن تكون هذه هي مهمة منابر دعوتهم الرئيسة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [77]

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [78] الحج

وهل يمكن للمسلمين أن يقيموا الشهادة على الناس دون تفعيل "الآية القرآنية" بينهم؟! وهل يمكن للناس الوقوف على فاعلية هذه الآية دون تعلمهم اللسان الذي تتحدث به هذه "الآية"؟! فأين يقع اللسان العربي بين المسلمين؟!

انظر إلى معظم بيوت المسلمين ولاحظ اعتزاز وسعادة الوالدين بأبنائهم الذين يتحدثون اللغات الأجنبية، وهم لا يزالون في رياض الأطفال..، ثم يأتي اللسان العربي في المرتبة الثانية!!

إن ترجمة القرآن إلى لغات مختلفة، يجعله مجرد نص [إنجليزي، أو فرنسي..] يحمل معاني، ينقصها أهم شيء انطلقت منه، وهو منظومة اللسان العربي، التي من خصائصها أن تعطي الكلمة عطاءاتها المتعددة التي لا تفهم ولا تستنبط إلا بتدبر السياق العربي القرآني، المكون لهذه المنظومة.

إن غياب اللسان العربي عن البيت المسلم، كان حاجزا يفصل بين قلوب أهله والوقوف على فاعلية "الآية القرآنية"، التي يسرها الله تعالى للذكر.

فهل يعقل أن يكرر الله تعالى قوله: "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ"، في أربعة مواضع من سياق سورة القمر، ثم يأتي معظم المسلمين ويقولون:

كيف لنا أن نفهم القرآن ونحن لم نتخرج في المعاهد الدينية؟!

إننا نفهم القرآن بأدوات فهمه، ومنها، بعد اللسان العربي، تدبر السياق والأسلوب القرآني، الذي انفرد به في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه، وهو أسلوب شاءت حكمة الله تعالى أن يغاير أساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف.

إنه أسلوب يستطيع أن يتعامل معه العامة، والخاصة، كل يأخذ منه ما يكفيه وزيادة. إن الأسلوب القرآني يعبر عن المعاني والأفكار بطريقة تصويرية تصل إلى القلب وإن لم يكن صاحبه فصيحا عالما باللسان العربي.

لذلك يأتي اللسان العربي محكوما بالسياق القرآني وليس حاكما. محكوما بأسلوب القرآن الخاص، الذي لا يقف عليه إلا من تدبر آياته، ووقف على العلاقات المتبادلة والمتناغمة، وعلى البناء المحكم الذي يجمعها.

إن للآية القرآنية لسانًا وأسلوبًا، يفوق اللسان العربي وأسلوبه، وهذا هو سر من أسرارها، الذي ينكشف للناس، على مر العصور، ليتبين للناس أنه الحق.

سادسا: يتلى على الناس

لقد أيد الله تعالى رسله بآيات حسية، دلت على صدق بلاغهم عن الله، وينتهي مفعولها بوفاتهم. أما الرسول الخاتم محمد، عليه السلام، فقد أيده الله بآية قرآنية عقلية تناسب مرحلة جديدة من مراحل التدرج والتطور الفكري، فجاءت لتتلى على الناس فتستقبلها قلوبهم وليس فقط أبصارهم، فيتبعوها.

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ [91] وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنذِرِينَ [92] النمل

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [61] يونس

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً [27] الكهف

وإذا كان الله قد أمر رسوله بتلاوة القرآن، أي بقراءته واتباعه، فقد بشر الذين يتبعون الرسول في هذه السنة النبوية بتجارة لن تبور، تدبر قول الله في سورة فاطر:

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ [29] لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ [30]

إن جميع الآيات القرآنية التي جاء سياقها يتحدث عن "النص الإلهي" الذي أمر الله رسوله أن يتلوه على الناس، جاءت تتحدث عن الكتاب الإلهي، وذكره الحكيم.

فتدبر ماذا قال الله تعالى بعدها:

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ [31] فاطر

ثم بين الله تعالى أن المسلمين لن يرثوا نصا تشريعيا إلهيا عن الله تعالى غير هذا الكتاب الإلهي، القرآن الحكيم، فقال بعدها:

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [32] فاطر

إن العلاقة الإيمانية وثيقة بين ذكر الله، وتلاوة آياته، وبين وجل القلوب، وزيادة إيمانها، فيقول الله تعالى في سورة الأنفال:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [2] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ [3]

إن زيادة الإيمان مرتبطة بتأثير الوحي القرآني على قلب المسلم، وقناعته أن هذا القرآن الذي يتلى عليه، هو كلام الله حقا وصدقا، فيقيم الطاعة لله تعالى، وهو على يقين راسخ أن ما يتبعه، هو وحي الله واجب الاتباع.

أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [4] الأنفال

لذلك كانت قوة التزام المسلم بأحكام الشريعة الإلهية تنبع من ثقته في مصدرها الحق المنزل من الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [151] الأنعام

تدبر قول الله تعالى: "ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ".

فهل عقل أنصار الفرقة والمذهبية، استحالة أن يأمر الله رسوله، بتلاوة نص تشريعي إلهي، في إطار رسالته العالمية وآيته القرآنية"، ثم لا يأمره بتدوينه في كتاب، تحت إشرافه، كما دون كتاب الله تعالى؟! لقد تكررت جملة: "ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" في الآية التي تلتها، ثم في قوله تعالى بعدها:

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [153] الأنعام

تدبر قول الله تعالى في الآيات السابقة [151–153] على الترتيب:

"ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"

"ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"

"ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"

لتقف على أهمية تفعيل آليات عمل القلب، للوقوف على خصائص النص التشريعي الإلهي واجب الاتباع، الهادي إلى صراط الله المستقيم، آية الله القرآنية، التي لو أن علماء المسلمين كافة، اجتمعوا حول مائدتها، لكفتهم، ولتوحدت كلمتهم، ولكانوا أهلا لشرف حمل مسئولية الشهادة على العالمين.

وبحصر جميع آيات الذكر الحكيم، المتعلقة بماهية وخصائص النص التشريعي الإلهي واجب الاتباع، والذي تفاعل معه رسول الله في أحواله اليومية..، لم أجد غير هذا القرآن. ومن هذه الآيات:

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [98] النحل

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [85] القصص

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [114] طه

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ [16] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [17] فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ [18] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [19] القيامة

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً [45] وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً [46] الإسراء

بل إن هذا القرآن، هو الذي أمر الله المسلمين كافة، أن يتلوه في أحوالهم اليومية:

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [61] يونس

لقد بينت الآيات السابقة أن القرآن هو مصدر العبادة ومصدر الهداية، وأن نصوص الشريعة الإسلامية الخاتمة لا تخرج عن حدود هذا القرآن، وأن إسلام المرء أو كفره مرتبط بقبوله أو إنكاره لنصوص "الآية القرآنية"، التي جعلها الله تعالى حجته على العالمين إلى يوم الدين.

لقد قدم السياق القرآني "الكتاب" على "القرآن"، في أول سورة الحجر:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ [1] رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ [2] ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ [3]

أما في أول سورة النمل، فقد قُدم القرآن على الكتاب، فقال تعالى:

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ [1] هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [2] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [3]

وبتدبر الآيات، نلاحظ أن سياق سورة الحجر جاء يتحدث عن الكافرين، أما سياق سورة النمل فقد جاء يتحدث عن المؤمنين الذين آمنوا أصلا بالكتاب، ثم هم يتبعون ويهتدون بقرآنه.

والسؤال: هل كان موقف الكافرين الرافض لدعوة رسول الله، عليه السلام، بسبب هذا الكتاب الإلهي، الذي حمله جميع الرسل؟!

أم بسبب هذه "الآية القرآنية"، التي خص الله تعالى بها خير أمة أخرجت للناس؟!

أم بسبب نص تشريعي أنزله الله تعالى على رسوله، وبلغه الرسول بلفظه، وكلامه هو، الذي كان يعلمه قومه جيدا قبل بعثته، لذلك اتهموه بافتراء الكذب على الله؟!

الإجابة تجدها في هذه المجموعة من الآيات، من سورة الرعد، فتدبر:

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ [27]

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [28]

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ [29]

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ [30]

ثم تدبر قول الله تعالى بعدها:

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ [31] الرعد

تدبر قوله تعالى: "لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ"، ثم قوله تعالى بعدها مبينا طبيعة هذا الوحي المتلو وخصائصه: "وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ".

إنني لا أنكر وجود وحي [بغير النص القرآني] بين الله تعالى ورسوله، فبتدبر سياق كثير من الآيات، نفهم أنه قد حدث كلام بين الله ورسوله، بأية طريقة من طرق الكلام السابق بيانها عند حديثي عن "الوحي الإلهي".

ولكن الإشكالية أن معظم علماء الفرق والمذاهب المختلفة، يعتقدون أن هذا النوع من الوحي، كان نصا تشريعيا ثانيا، أمر الله تعالى رسوله أن يبلغه الناس، باسم "الحديث النبوي"، ولا يدونه في كتاب، مخافة أن يختلط بالقرآن!!

فإذا نظرت إلى هذا الادعاء، وما يحمله من مغالطات، تشكك في أن القرآن كلام الله، وآيته الدالة على صدق رسوله، والذي يستحيل أن تختلط نصوصه بكلام البشر حتى يصعب فصلهما..، إذا تدبرت ذلك، علمت عدم صحة هذا الادعاء وأن تدوين نص تشريع إلهي في كتاب، وحفظ الله لهذا الكتاب، هو دليل وبرهان حجيته.

سابعا: الهادي إلى صراط الله المستقيم

ماذا على المؤمن، الذي شهد شهادة علمية، تقوم على الدليل والحجة والبرهان، أنه "لا إله إلا الله"، وأن "محمداً رسول الله"، وأن هذه "الآية القرآنية"، المعاصرة لنا اليوم هي رسالة الله للعالمين، التي أنزلها على رسوله الكريم، لهداية العالمين، إلى صراطه المستقيم..، ماذا عليه أن يفعل بعد ذلك؟!

هل يترك تفاعل فطرته الإيمانية مع آليات عمل قلبه، التي أوصلته إلى هذا الإيمان العلمي، هل يترك ذلك جانباً ويتبع مذهب آبائه؟!

أم أن عليه أن يقوم بتفعيل هذا الإيمان العلمي، سلوكا عمليا في حياته، ولا يتبع في دين الله إلا ما قام الدليل والحجة والبرهان الإلهي عليه؟!

إن الناظر إلى أحوال المسلمين، وانقسامهم إلى فرق ومذاهب مختلفة، يجب أن يشعر بمسئوليته تجاه إعادة النظر في إيمانه الوراثي، وأن يعيد قراءة القرآن، لا بوصفه كتابا إلهيا فقط، وإنما "آية قرآنية" لا يكتمل إيمان المرء إلا بالإقرار بفاعلية عطاء نصوصها على مر العصور.

إن القاعدة المنطقية تقول:

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [78] الشعراء

فالله تعالى وحده هو الهادي إلى صراطه المستقيم وذلك بما يُنزله من كتب ويرسله من رسل..، فماذا يفعل الإنسان عندما يولد وسط عالم، قد تعددت فيه الشرائع المنسوبة إلى الله تعالى وكل فريق يدعي أن شريعته هي أصح الشرائع؟!

إن الهداية هي الدلالة إلى طرق العلم، الموصل إلى الحق، فكما خلقنا الله تعالى بفطرة إيمانية، وبآليات عمل لقلوبنا، لنتعرف بها دلائل وحدانيته، وكتابه الذي أنزل ورسوله الذي بلغ..، يستحيل أن يتركنا مع هذا الكتاب الحكيم، الذي جعله آية رسوله الدالة على صدقه والذي تعهد بحفظه إلى يوم الدين..، دون أن يبين لنا كيف نستقي منه الفهم الصحيح لنصوصه!!

إنني اليوم، في القرن الخامس عشر الهجري، أشهد أنه "لا إله إلا الله"، وأن هذا

القرآن هو كلام الله يقينا.

إنني اليوم، أشهد أن هذا القرآن هو آية رسول الله محمد، الذي آمنت برسالته، من خلال قناعتي الذاتية، بفاعلية هذه "الآية القرآنية" في هذا الوجود من حولي، بعيدا عن مذهب آبائي، ومرجعياتهم الدينية، التخاصمية، التي عصفت بوحدة الأمة الإسلامية.

إنه لا مفر من أن يُعيد كل منا قراءة كتاب الله قراءة المتدبر لآيته القرآنية، وذلك للوقوف على حقيقة هذا الدين، الهادي إلى صراط الله المستقيم، والذي جعله الله رحمة للعالمين، إلى يوم الدين.

لقد جمعت "الآية القرآنية" أنواع الهدى التي تحتاج إليها البشرية، وذلك بما حملته من عطاء متجدد على مر العصور.

لقد جمعت دلائل الوحدانية، وصدق النبوة وأصول الإيمان والمناسك، وأحكام المعاملات، وأخبار الأمم السابقة..، كما جمعت آليات تنوير القلوب وإرشادها إلى طرق الاستدلال والاستنباط، والنظر والتفكير الهادي إلى صراط الله المستقيم.

لذلك نلاحظ أن السياق القرآني يربط، في كثير من آيات الذكر الحكيم، بين دلائل وحدانية الله، ووجوب اتباع شريعته، لبيان أن الطرق العلمية الموصلة إلى التوحيد هي نفسها الطرق الموصلة إلى تعرف النص التشريعي الإلهي، واجب الاتباع، وإلى الأدوات اللازمة لفهمه، ولكيفية أداء ما أجمله من أحكام.

وللوقوف على هذه المقاصد القرآنية، علينا أن نتدبر هذه المجموعة التالية من الآيات، والتي تضع المرء على أول الطريق الهادي إلى صراط الله المستقيم.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ [7]

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ [8]

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [9] وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [10]

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنْ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ [11] لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [12]

شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [13]

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ [14] فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [15] الشورى

إن الإحالة إلى حكم الله عند الاختلاف، ثم الحديث بعدها عن دلائل الوحدانية، يدل على أن الذي خلق هو الذي يهدي إلى كتابه، وإلى طرق وأدوات فهمه، حتى لا يضل الناس طريق هداه. إن قيمة المسلم، الذي كرمه الله تعالى بآليات عمل القلب، أن يقيم عبوديته لله تعالى، على أساس الفهم الواعي، للعلاقة بين "الآية القرآنية" وهذه المنظومة الكونية، التي تحدثت عنها الآيات.

فهل يعقل، أن يسخر الله تعالى هذه المنظومة الكونية، من آيات الآفاق والأنفس ويزود الإنسان بآليات التدبر والتفكر والتعقل..، للوقوف على دلائل الوحدانية في هذا الكون، وييسر له الوقوف على تفاعلها مع "الآية القرآنية"..، ليقيم حجيتها على أساس علمي..، هل يعقل، بعد كل هذه النعم، أن يأتي الإنسان ويعطي ظهره لهذه الآية

القرآنية المعاصرة له اليوم، ويقول: بل أتبع ما وجدت عليه آبائي؟!

إن الجهل، وفتنة الآبائية، والتقليد الأعمى، والتقول على الله ورسوله بغير علم... ظلمات جاء القرآن ليُخرج الناس منها. فماذا فعل أتباع رسول الله محمد، عليه السلام أمام هذه الظلمات؟! وهل يعيش المسلمون اليوم في "نور" أم في "ظلمات"؟!

وإذا لم يرجع المسلمون الحاملون لهذه "الآية القرآنية" إلى نصوصها، ليستمدوا منها النور الهادي إلى صراط ربهم المستقيم..، فمن الذي سيرجع؟! ومن الذي سيقيم الشهادة على العالمين، التي أمر الله تعالى بها؟!

إن المسلمين الذين يستمدون عزتهم من عزة الله ورسوله لماذا ضيعوا هذه العزة؟!

إن عزة المسلم تقوم على الفهم الواعي لمسئوليته في الشهادة على الناس، وأول الطريق لتحمل هذه المسئولية هو العلم بفعالية هذه "الآية القرآنية" المعاصرة لنا اليوم مع الكون من حولنا.

لذلك عندما أمر الله رسوله بالقراءة، لم يأمره بقراءة نصوص مدونة في الصحف فقط، وإنما أمره بقراءة الكون وتفاعله مع آيته القرآنية، فتدبر:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [1] خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [2] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ [3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [4] عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [5] العلق

لقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، يدعو الناس جميعاً إلى تفعيل آليات عمل قلوبهم، والالتفاف حول "آيته القرآنية" أمة واحدة، فلماذا يُصر المسلمون على التمسك بتفرقهم وتخاصمهم..، فهذا يرفع راية "مذهب أهل السنة هو الحق"، وآخر يرفع راية "مذهب الشيعة هو الحق"، وإلههم واحد، ورسولهم واحد، وكتابهم واحد، وقبلتهم واحدة وقد حذرهم الله تعالى من التفرق في الدين، وبيّن لهم الطريق إلى صراطه المستقيم؟!

إن عزة المسلمين في أن يعودوا جميعا إلى أول الطريق الموصل إلى صراط ربهم المستقيم.

إن عزة المسلمين في تمسكهم بآية رسولهم التي لا يكتمل إسلامهم إلا بإيمانهم بفاعلية عطائها، المتجدد على مر العصور، وإثبات ذلك عمليا في حياتهم بأسلوب حضاري، يُظهر أهليتهم للشهادة على الناس، ودورهم في إخراجهم من الظلمات إلى

النور.

إن كرامة المسلم ليست في جسده المادي، ومركزه الاجتماعي والمالي، وإنما في قيمة إيمانه، وعزة إسلامه.

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ [8] المنافقون

إن عزة المسلمين تقوم على تدبر نصوص آية الرسول القرآنية، المعاصرة لهم ودراستها، للوقوف على مقومات العزة، وهل هي مقومات مذهبية، فلكل فرقة مقومات عزتها..؟!

أم هي "دستور الأخلاق"، الذي جاءت به هذه "الآية القرآنية" والذي حمل كل مقومات العزة، التي إذا تمسك بها الناس هدوا إلى صراط ربهم المستقيم؟!

فلنتدبر هذه المجموعة من الآيات، التي تلقي الضوء على بعض هذه الأخلاق واجبة الاتباع، وفي مقدمتها خُلُق "هداية الكتاب".

الم [1] ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ [2] البقرة

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [97] البقرة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ [159] البقرة

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ [157] الأنعام

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [64] النحل

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [89] النحل

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً [9] الإسراء

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ [91]

وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنذِرِينَ [92] النمل

الم [1] تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [2] هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ [3]

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ [4] أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [5] لقمان

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [6] سبأ

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [23] الزمر

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [44] فصلت

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [52]

صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ [53] الشورى

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً [28] الفتح

إن ما سبق ليس عملية إحصاء لآيات "هداية الكتاب" وإنما مجرد أمثلة لدراسة وتدبر سياق الآيات، حسب ترتيب السور، وموضع الكلمة القرآنية فيها، للوقوف على العلاقات المتناغمة بينها، وما تحمله من "أخلاق النبوة" في القرآن الحكيم.

إن شهادة "ألا إله إلا الله"، تقوم على تفاعل آليات عمل القلب، وفطرته السليمة، مع آيات الآفاق والأنفس، المبثوثة في هذا الكون، والوقوف على التناغم المحكم، بينهما وبين نصوص "الآية القرآنية". وبذلك يستطيع كل مسلم، في أي عصر، أن يشهد أنه "لا إله إلا الله"، وأن "محمداً رسول الله"، على أساس هذا التفاعل، وهذا التناغم.

والسؤال: ما الحكمة في أن يرث المسلمون شريعة إلهية لها مصدران:

. مصدر تشريعي قطعي الثبوت عن الله ورسوله، وهو "الآية القرآنية"

. ومصدر تشريعي ظني الثبوت عن رسول الله عليه السلام، وهو ما نسب إليه من "أحاديث" مختلف على صحة ثبوتها عن النبي اختلافا كبيرا بين علماء الفرق المختلفة؟!

فكيف يدعي علماء الفرق المختلفة أن الله تعالى أنزل على رسوله القرآن ومثله معه وأن هذا "المثل" هو مرويات الرواة الظنية الثبوت عن رسول الله؟!! كيف يساوي علماء المسلمين بين كلام الله وكلام رسوله بدعوى اتباع "السنة النبوية"؟!

هل خصائص نصوص "الآية القرآنية" تتساوى مع خصائص "الأحاديث" المذهبية التي نسبها رواة الفرق المختلفة إلى رسول الله؟!

لماذا لا نقيم حجية اتباعنا لدين الله على أساس أنه كلام الله تعالى الذي يستحيل أن يشاركه فيه أحد، مهما كان بيانه، ومهما كانت بلاغة أسلوبه؟!

هل يتساوى كلام الله بكلام البشر، ولو كان نبيا رسولا؟! إنهما إن تساويا كان من السهل هدمهما!! إنها مسألة بديهة لمن كان له قلب يعقل!! وإذا كان لا يستويان، إذن فلماذا الخوف والقلق على كتاب الله؟!

فليفعل الجن والإنس ما شاءوا أن يفعلوا في نصوص هذه "الآية القرآنية"، فإن نجحوا في تبديلها وتحريفها فقد صح ادعاؤهم أن "القرآن"، مثله مثل "مرويات" الرواة المنسوبة إلى محمد بن عبد الله!!

وإن لم ينجحوا فقد خاب ظنهم، وكذب كل من ادعى أن الله تعالى أنزل على رسوله الخاتم نصّين تشريعيّن، أحدهما "القرآن" والآخر "الحديث"، وعليهم أن يعيدوا النظر في فهمهم لدين الله تعالى، ولنصوص آيته القرآنية الخاتمة.

ولن ينفعهم، يوم القيامة، القول بأن رسول الله كان لا يقصد بهذا "المثل" العدد، أي عدد أحاديثه، وإنما كان يقصد أن ما حملته هذه الأحاديث [مهما بلغ عددها] من أحكام الشريعة الإسلامية هو مثل ما حمله القرآن!! ولا تعليق!!!!

ولن أقول، ردا على ذلك، أكثر من أن هذا عذر أقبح من الذنب الذي يحملونه!!

إننا بقدر تمسكنا بأخلاق النبوة، وذلك بتعلم ودراسة كتاب الله، واستنباطها من آياته..، تكون معايشتنا للسنة النبوية، وتفاعلها مع أحداث ومواقف عصر الرسالة. وعندئذ سندرك حقيقة الفرق بين كلام الله، وكلام البشر، بين "الآية" و"الرواية"، بين نصوص القرآن الحكيم، ومرويات الرواة المذهبية، التي إن صحت عند فريق لم تصح عند آخر!!

والغريب، أن كل فريق، عند مواجهته بهذه الإشكالية، يقول لك: نحن الأمة الإسلامية..، ونحن الفرقة الناجية..، ولا علاقة لنا بالفرق الأخرى الضالة!!

لقد أرسل الله الرسل رحمة بالناس، فهو عز وجل لا يرضى لعباده الكفر، بل ولا يرضى لعباده المعصية، ولا يرضى لعباده الاختلاف والتفرق في الدين.

ولا يقول قائل: إن اختلاف الناس وتفرقهم في الدين، سنة كونية ومشيئة إلهية، ولذلك خلقهم، ويستدلون بقوله تعالى:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ [118] إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [119] هود

إن هؤلاء المختلفين، وقد أصروا على اختلافهم وتفرقهم، هم المحرومون من رحمة الله تعالى، التي لا يكتبها إلا للذين يتبعون النور الذي أنزل على الرسول.

إن هذا الرسول الكريم، عليه السلام، الذي أمره ربه أن يحذر أمته من التفرق والاختلاف في الدين، قد بين لأمته أن الله تعالى لم يخلقهم في الأصل مختلفين في الدين، وإنما خلقهم أحرارا ليختاروا بين الحق والباطل.

لذلك "وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"، وفق قانون حرية الاختيار البشري، فمن اختار الحق كان من المرحومين، "إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ"، ومن اختار الباطل، فقد ناله عذاب الله.

وإن من مظاهر هذه الرحمة الإلهية، أن يكون "النص التشريعي الإلهي" كتابا واحدا لا يحمل اسم أحد من البشر، وإن كان رسولاً.

إن شريعة الله تعالى حق، حملت حجيتها في ذاتها، فكيف تقبل تعدد المصادر المختلف حول حجيتها؟!

ثامنا: واجب الاتباع

لقد تلا رسول الله كتاب الله على الناس، وعلمه المسلم وغير المسلم، ووصل إلينا تماما كما تلاه، فكان النور الهادي إلى صراط الله المستقيم. ولقد بيّن القرآن الحكيم، في أكثر من موضع، أن اتباع الصراط المستقيم في اتباع آياته، ومنها:

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [153] الأنعام

لقد سبقت هذه الآية، مجموعة من الآيات، بدأت بالرد على الذين ينسبون إلى الله مصادر تشريعية ما أنزل بها من سلطان، حسب ما تهوى أنفسهم!!

لذلك أمر الله تعالى رسوله أن يطلب منهم إقامة البرهان على صحة نسبة هذه التشريعات [المفتراة] إلى الله تعالى.

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ [150] الأنعام

لقد كذب المشركون بآيات الله، فأمر الله رسوله بعدم اتباعهم، وسمى ما يتبعونه "هوى"، لعدم قيامه على الحجة والبرهان الإلهي. ولو أن أتباعهم كانوا يؤمنون بالآخرة ما اتخذوهم مشرعين، أندادا لله تعالى.

لقد دعاهم الله إلى معرفة أحكام الحلال والحرام، وذلك من خلال النص القرآني قطعي الثبوت عن الله عز وجل، وأمر رسوله أن يعلن ذلك صراحة:

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [151]

ثم يستكمل السياق بعض أحكام الشريعة، فيقول تعالى:

وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [152] الأنعام

لقد فَصَّلت الآيات السابقة أصول وقواعد إقامة حياة اجتماعية فاضلة، يسعد فيها البشر جميعا، بفضل اتباعهم نصوص "الآية القرآنية" القائمة بينهم إلى يوم الدين. وإن من هذه الأصول، القائمة على تفعيل آليات عمل القلب:

دوام التعقل: "ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"

دوام التذكر: "ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"

دوام التقوى: "ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"

وبعد آية واحدة جاء السياق القرآني بتحديد واضح لطبيعة وخصائص المصدر التشريعي الإلهي واجب الاتباع، فقال تعالى:

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [155] الأنعام

لذلك فإن نسبة أي حكم إلى الله تعالى، أو إلى رسوله، خارج حدود هذا الكتاب المبارك، هو اتباع للهوى.

لقد بذل أهل الكتاب أقصى جهدهم مع رسول الله ليتبع ملتهم، ونزل القرآن يكشف عن ذلك ويبين انحراف اليهود والنصارى عن صراط ربهم المستقيم.

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ [120] البقرة

إن اليهود والنصارى عندما زعموا أنهم على الهدى، جاء القرآن يبين لهم طبيعة الهدى وخصائصه.

إن الذين آتاهم الله الكتاب، على مر الرسالات، وتلوه حق تلاوته..، تلاوة علم وتدبر واتباع، وفهموا أصول الشريعة الإلهية، ومقاصدها العليا....، أولئك هم المهتدون

العالمون بحكمة أن يكون الكتاب الخاتم "آية قرآنية".

لذلك قال الله تعالى بعدها:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ [121] البقرة

ولقد حذر الله تعالى الناس من اتباع الشيطان الرجيم لأنه يأمر بما يصدهم عن صراط ربهم المستقيم. إن الذي خلق ورزق، هو الذي يهدي ويشرع. يقول الله تعالى في سورة البقرة:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [168]

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [169]

إن اتباع الآباء بغير علم، صفة مذمومة، ترضي الشيطان، ويفرح بها.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [170] البقرة

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [

إن على كل عاقل رشيد أن يفرق بين ما هو وحي إلهي مما ليس بوحي، لذلك عقب بقوله: "أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ"؟

وعندما يفكر المرء، ويدرس نصوص "الآية القرآنية"، المعاصرة له بقلب سليم، لا شك أنه سيصل إلى نتيجة واحدة مفادها: أن البصيرة والهدى، كل الهدى، في اتباع هذه "الآية القرآنية".

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [104]

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [105]

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ [106] الأنعام

ومعلوم أن في الاتباع معنى الملازمة، والامتثال لأمر الله تعالى، وهو أمر باق إلى يوم الدين. ولقد حصر الله تعالى هذا الاتباع في كتاب، قد بين خصائصه في كثير من آيات ذكره الحكيم. وأكد ذلك بقوله تعالى:

المص [1] كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [2] اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ [3] الأعراف

لقد حصر الله تعالى النص التشريعي واجب الاتباع في "الكتاب المنزل"، وبيّن أن هذا الكتاب قد حمل للناس منهج حياتهم ومصدر شريعتهم، فهو المصدر الذي كان رسول الله يستقي منه شريعته: "كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ"، وهو نفسه المصدر الذي أمر الله المؤمنين باتباعه، وتذكره.

إن طريق الفلاح في اتباع مصدر واحد للتشريع، هو عين الهدى، والنور الذي أُنزل على رسول الله الخاتم. لقد وصفه الله تعالى وحدد معالمه.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [157]

إذن فالفلاح كل الفلاح، بشهادة الله تعالى، في اتباع نصوص "الآية القرآنية"، هذا النور الذي أنزله الله على رسوله الخاتم محمد، عليه السلام، ليخرج الناس من ظلماتهم.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [158] الأعراف

ولقد بين الله ماهية هذا النور الذي جاء به رسوله، وخصائصه، فهو كلمات الله تعالى، الذي جعل الهدى، كل الهدى، في اتباعها. وهو بصائر للناس، لذلك أمر الله تعالى المسلمين أن يقفوا أمامه وقفة الفاهم لكلماته، المدرك لقدسيتها، الدارس لهداها المستسلم الخاشع الخاضع لأحكامها.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [203] وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [204] الأعراف

لقد جمع القرآن الكريم البصائر كافة، التي تحتاج إليها البشرية في مختلف مناحي الحياة. لقد أمر الله بالاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فذلك أرجى أن ينتفع بهداه. لقد بين الله خصائص الوحي واجب الاتباع، كما بين آداب قراءته، ووعد ثمرة ذلك الرحمة: "لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ".

لقد عرف العرب رسول الله محمدا، عليه السلام، قبل بعثته، معرفة جيدة، فلم يعهدوا من حديثه، في يوم من الأيام، مثل لغة وأسلوب هذا القرآن، ومع ذلك اتهموه بأنه من تأليفه، أو من تعليم آخرين له. لقد تناسوا أنه لو كان القرآن من وضع بشر وهم أصلاً بشر بل وأهل اللسان العربي، لاستطاعوا أن يأتوا هم أيضا بمثله!!

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [16] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ [17] يونس

وفي مواجهة الكفر والتكذيب، يسأل رسول الله المكذبين: هل عندهم من كتاب يتبعه أهدى مما أنزله الله تعالى؟!

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [49] القصص

فهل أتوا بهذا الكتاب؟! إن الله يعلم إنهم كاذبون ضالون، لن يأتوا به أصلا، ولن يستجيبوا لرسول الله، فهم يتبعون أهواءهم.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [50] القصص

إن أظلم الظلم أن يفترى على الله الكذب، وينسب إليه ما لم يأذن به. لقد ساوى الله تعالى بين الافتراء، والتكذيب، واتباع الهوى!!

فهل يعقل بعد كل هذه الخصائص المميزة للنص التشريعي الإلهي، أن ينزل الله تعالى على رسوله نصوص شريعة، مكملة لأحكام "آيته القرآنية"، ثم لا تأخذ هذه النصوص نفس خصائص الشريعة القرآنية؟! لماذا؟! وما الحكمة من وراء ذلك؟!

إن الله تعالى لا يُنزل على رسوله إلا الحق، وليس بعد الحق إلا الضلال:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ [108] يونس

إن اتباع الشريعة الإلهية يقوم على الحق واليقين.

إنه ليس كشرائع البشر التي تقوم على اجتهاداتهم وأهوائهم.

لذلك حفظ الله تعالى نصوص شريعته ليظل الحق قائما بين الناس إلى يوم الدين.

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [109] يونس

وفي سياق التحذير من التقليد الأعمى، ومن فتنة "الآبائية"، يذكر الله تعالى الناس بنعمه التي لا تحصى، وضرورة أن يقوم الحوار العلمي على "البرهان" المستمد من مقاصد الشريعة القرآنية:

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ [20] لقمان

ثم جاء السياق يحذر من فتنة "الآبائية"، التي غالبا ما يكون الشيطان وراءها:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [21] لقمان

إن الذين يتبعون آباءهم، بغير علم، وبغير فهم واع لنصوص "الآية القرآنية"، هؤلاء لم يستمسكوا بالعروة الوثقى، ولم يهتدوا إلى صراط الله المستقيم.

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ [22] لقمان

إن الذين أسلموا وجوههم لله وحده، هم الذين استمسكوا بالعروة الوثقى.

إن الذين يتبعون آباءهم، بغير هدى من الله، يجعلون بينهم وبين اتباع الحق حاجزاً يصدهم عن صراط ربهم المستقيم.

ولقد كان رسول الله محمد، عليه السلام، أول المستمسكين بالعروة الوثقى باتباعه ما أمره الله به. وهل يأمر الله تعالى رسوله إلا باتباع الحق؟!

وهل يمكن للقرآن أن يأتيه الباطل؟!

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ [41] لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [42] فصلت

وإذا كان الله تعالى قد حذر الناس، والمسلمين خاصة، من طاعة أو اتباع غير الحق

الذي أنزله على رسوله، فكان من الطبيعي، بل ومن العدل الإلهي، أن يحفظ الله تعالى للناس هذا الكتاب على مر العصور.

إن خطاب القرآن لرسول الله، خطاب للناس كافة. إنه يضع القواعد العامة للسلوك الإنساني، فبدون تقوى الله لا يمكن أن يقوم نظام إسلامي عادل يحقق السعادة للناس في الدنيا، والفلاح في الآخرة. وبدون تقوى **الله** يتعدى الناس حدود الله، فيشرعون شرائع وأحكاما ما أنزل الله بها من سلطان.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً [1] وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً [2] الأحزاب

وبذلك نفهم العلاقة بين الأمر بتقوى الله واتباع الوحي، وأن الذي يربطهما موضوع الاتباع، وهو نصوص "الآية القرآنية"، التي آمن على أساسها من آمن في عصر التنزيل وتعهد الله بحفظها إلى يوم الدين.

لقد علم رسول الله مهمته، وحدود مسئوليته..، لذلك كانت تنتابه حال من الخشية والخوف على ضياع شيء من الوحي القرآني، فنزل القرآن يبين مدى حرص رسول الله على ألا يضيع شيء منه أثناء تلقي القرآن.

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ [16] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [17] فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ [18] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [19] القيامة

إن "البيان" في قوله تعالى: "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" ليس بمعنى التفسير، وإنما بمعنى الإظهار، إظهار القرآن على الدين كله.

وإلى المبحث التالي للرد على بعض الشبهات

السياق القرآني
يرد على الشبهات

لقد خلق الله تعالى الإنسان حرا، وعلى أساس هذه الحرية، أمره أن ينظر إلى آيات الآفاق والأنفس، ليقف على دلائل الوحدانية، بفطرته السليمة، وآليات عمل قلبه الحية فيعلم أنه "لا إله إلا الله"، وأن إرسال الرسل، لتبليغ رسالة الله، ضرورة وحتمية منطقية قبل أن تكون شرعية.

لذلك أرسل الله تعالى رسوله محمداً، عليه السلام، برسالته الخاتمة، وجعلها "آية قرآنية" دالة على صدق بلاغه عن الله، وحجة قائمة بين الناس، تهديهم إلى صراط ربهم المستقيم، إلى يوم الدين.

وبعد أن يشهد الإنسان شهادة علمية أنه "لا إله إلا الله"، وأن محمداً رسول الله المبلغ لنصوص هذه "الآية القرآنية"، تفرض عليه هذه النصوص، ممارسة المنهج العلمي النقدي، لما حملته له "منظومة التواصل المعرفي" من ميراث الآباء الديني للوقوف على مدى موافقته لدين الله تعالى، ومقاصده العلى.

وهنا تقف "فتنة الآبائية"، والإغواء الشيطاني، وأمراض القلوب..، عقبة أمام تفعيل هذا المنهج العلمي في نقد تراث الآباء الديني. فالذي يولد في بيئة تكرر على مسامعه دائماً عقائد وأفكاراً [سلبية كانت أو إيجابية] فإن قلبه يتشرب هذه العقائد، وتراه يجادل بهذه الأفكار، التي قد تم تخزينها وتثبيتها تدريجيا في مستودع القلب، لتصبح جزءا رئيساً من معارفه.

ومن أمراض القلوب التي كان لها دور رئيس في تمسك الأبناء بميراث الآباء مرض "البغي". إن البغي سلوك مرضي تقوم البيئة المحيطة بالإنسان بدور كبير في زرعه في قلبه منذ طفولته، ويظهر بوضوح في مجال الموروث الديني، حيث يعتز كل إنسان ويصر على رأيه، ويُمعن في تسفيه آراء الآخرين، الذين يشتركون معه في عضوية منظومة [الآبائية]..، وهؤلاء جميعا لا يستطيعون إقامة الدليل على أن مذهب آبائهم هو الحق واجب الاتباع.

إن ما يعاني منه العالم اليوم من عنف وإرهاب وتطرف، وتخاصم وسفك للدماء بغير حق..، بسبب هذا البغي، وغياب الفهم الواعي لمقاصد "الآية القرآنية" العالمية.

لقد أرسل الله تعالى رسوله محمداً، رحمة للعالمين، وكان على المسلمين أن يفعلوا رسالة الرحمة بين الناس، اتباعا لسنة نبيهم..، ولكنهم انشغلوا بتفرقهم، وبمنابر دعوتهم التخاصمية، المحلية والفضائية، وبمن هي "الفرقة الناجية" من بين هذه الفرق، وبمدى حرص أتباعهم على تقديس أئمة مذاهبهم الدينية!! لقد أضاعوا أوقاتهم..، وجاهدوا في ساحة غير التي أمرهم الله تعالى بالجهاد فيها، فظلوا قرونا داخل دائرة التفرق والتخاصم ولا يستطيعون اقتلاع شجرة المذهبية من قلوبهم.

ومما يدعو للأسف أن جذور هذا التطرف الفكري قد حملتها كتب تراث الفرق والمذاهب المختلفة، قرونا من الزمان، ومنها ما ينسب إلى "السنة النبوية" افتراء على رسول الله، ويذاع يوميا من منابر الدعوة المختلفة!!

إن الله تعالى يرسل رسله بالبينات، أي بالحجج والبراهين الدالة على الحق، ثم بعد وفاتهم، يختلف أتباعهم، ويتفرقون في الدين، بعد أن جاءهم العلم الحق، فلماذا يختلفون ويتفرقون؟!

لقد أجاب القرآن على ذلك بقوله تعالى:

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [213] البقرة

إن الأمة، هي الجماعة من الناس، الذين يجمعهم وطن، أو نسب، أو دين، أو لغة.. أو جميع ذلك. وهي هنا بمعنى الناس الذين يجمعهم الدين الإلهي، ثم إذا هم يختلفون بعد وفاة الرسل، فيبعث الله مع كل نبي كتابه، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ولا شك أن هذا الاختلاف الذي يحتاج إلى بعثة الرسل هو الاختلاف الناشئ عن التفرق في الدين، بعد اجتماع. وهذا التفرق إما أن يكون بين أهل الكتب الإلهية بعضهم مع بعض، أو بين أتباع الكتاب الواحد، أهل الدين الواحد، كما قال الله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ [110] هود

والذي يهمنا بيانه، أن الهدف الأول، من إرسال الرسل، هو إبطال الاختلاف والتفرق في الدين، سواء أكان هذا الاختلاف بين أتباع الكتب، أم بين أتباع الكتاب والدين الواحد. وهذا ينطبق على حال الأمة الإسلامية، وتفرقها إلى فرق ومذاهب دينية، بعد وفاة رسول الله محمد، عليه السلام، وتوظيف علماء كل فرقة نصوص الكتاب الإلهي لخدمة توجهاتهم العقدية والتشريعية، مخالفين في ذلك الفرق الأخرى.

تدبر قول الله تعالى: "وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ"، أي إلا الذين اصطفاهم الله لحمل كتابه، لهداية الناس إلى وجه الحق في مسائل الخلاف، فإذا هم يختلفون مع أنفسهم، ويتفرقون في الدين، الأمر الذي يحتاج إلى رسول جديد، يأتي ليردهم إلى الدين الحق، الذي أنزله الله تعالى!!

ولكن الأهم من ذلك، قوله تعالى: "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ"، والذي يبين أن الاختلاف قد جاء بعد أن حملوا "البينات"، أي بعد أن حملوا الحجج والبراهين التي من شأنها حسم هذا الاختلاف، فإذا الاختلاف يصل بهم إلى حال أسوأ من الذين لم يهتدوا أصلا!!

إن البغي: ظلم الغير، وأخذ حقه. فإذا نظرنا إلى المختلفين في الدين، نجد بعضهم يبغي على بعض، مستندا إلى أحكام الشريعة، وتأويلها على غير وجهها الصحيح.

لقد استطاع الشيطان، بعد وفاة رسول الله، أن يوقع الأمة الإسلامية، في مصيبتين:

الأولى: أن تتفرق في الدين، بعد أن حملت "البينات".

والثانية: ألا تكتفي بمصيبة التفرق، وإنما يتخاصم أفرادها، أتباع الفرق المختلفة ويتصارعون، ويتقاتلون، "بَغْياً بَيْنَهُمْ"، أي بقصد انتصار أتباع فرقة، لآراء علمائها على أتباع الفرق الأخرى، وتسفيه آراء علمائهم!!

والسؤال: إذا كان الهدى، كل الهدى، الحاسم لمسائل الخلاف، قد جاءت به "الآية القرآنية"، وكان على المسلمين، أن يحملوها للناس، أمة واحدة:

"فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ"،

فأين هي هذه الأمة اليوم؟!

لقد بعث الله رسوله محمداً بالقرآن لإرشاد الناس إلى ما اختلفوا فيه، بالحجة والبرهان. يقول الله تعالى:

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [64] النحل

إذن فأين هي أمة رسول الله محمد، لتقوم بتفعيل هذه "السنة النبوية"، بما تحمله من "آية قرآنية"، جاءت لهداية الناس إلى صراط ربهم المستقيم، إلى دين الإسلام، دين الرسل أجمعين؟!

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [19] آل عمران

إذن فالقضية قضية علم "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ"، واتباع للحق "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ" الذي أنزله الله تعالى، لا تَدَيُّن البشر الذي جاءت به المذاهب المختلفة.

فهل يمكن أن يحدث اختلاف وتخاصم وتقاتل بسبب الدين، وقد جاء الرسل بالعلم الحق، العاصم من التفرق والاختلاف؟! فأين إذن الخلل؟!

إن البغي يُحَكِّمُ هوى النفس، وفتنة الآبائية، في فهم نصوص الدين الحق، فيُدخِلُ عليها ما لم تأت به الرسل. فكتاب الله تعالى واحد، ورسول الله واحد، فمن أين يأتي الاختلاف في الدين بين أتباع الرسل؟! أإله مع الله أمرهم بخلاف ما أمر به الله؟!

إن النبع الصافي الذي استقى منه رسول الله محمد، وصحبه الكرام، شريعتهم ومنهاج حياتهم، هو نصوص "الآية القرآنية"، قبل ظهور الفرق والمذاهب المختلفة وبعيداً عن الموروث الديني المذهبي.

لقد جاء رسول الله رحمة للعالمين، فهل من الرحمة الاختلاف في الدين باسم اتباع "السنة النبوية"؟! إن الاختلاف في فهم نصوص الدين أمر مباح، أما الاختلاف في حجية هذه النصوص، وما صح منها وما لم يصح..، فأمر مذموم، وليس من دين الله تعالى في شيء.

أما الأخطر من ذلك، فهو توظيف آيات الذكر الحكيم، واستنباط معان وأحكام منها يقيمون على أساسها حجية مصادرهم التشريعية المذهبية، بعيدا عن سياقها الذي نزلت فيه، بدعوى أنها "السنة النبوية" واجبة الاتباع!!

فمع بعض الأمثلة التي توضح ذلك:

1. مسألة البيان في القرآن الحكيم

لقد سمى الله تعالى أهل الكتب الإلهية بأهل الذكر لإفادة قوة وصف هذه الكتب بالتذكير، وإقامة الحجة على اللاهين الغافلين عن رسالة ربهم، المعترضين على أن يرسل الله بشراً رسولا

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ [7] وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ [8] الأنبياء

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [43] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [44] النحل

إن المتدبر لسياق الآيات التي ورد فيها قول الله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً" يعلم أن الخطاب القرآني كان لهؤلاء المختلفين على رسالة رسول الله محمد المكذبين بها، وليس للمسلمين، الذين آمنوا برسول الله، ولم يختلفوا على رسالته.

فقوله تعالى: "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ" يفيد إحالة الشاكين في صدق الرسول، إلى العارفين بالكتب الإلهية، ليعلموا منهم حقيقة أمر الرسل والرسالات، وهل يصطفي الله تعالى رسله من الرجال أم من غيرهم؟!

فإذا سألنا اليهود: من هو رسولكم؟!

أجابوا: موسى، عليه السلام. فإذا سألناهم هل كان رجلا؟! أجابوا: نعم. وكذلك الأمر بالنسبة للنصارى.

إن سياق الآيات لا يخاطب المسلمين لبيان أحكام شريعتهم، ذلك أن كلمة "الناس" تعني في هذا السياق "أهل الكتاب"، والمكذبين بدعوة رسول الله محمد، عليه السلام. وقول الله لرسوله: "لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ" خطاب لرسول الله يبيّن دوره في الرد على شبهات المكذبين، وكشف حقيقة ما اختلفوا فيه.

وبرهان ذلك هو سياق الآيات التي سبقت هذه الآية، والذي يوضح أن المهمة التي أمر الله تعالى رسوله القيام بها في هذا السياق هي الرد على هذه الشبهات، فتدبر:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [38] لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ [39] النحل

فقول الله تعالى: "لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ" جاء في سياق الرد على هؤلاء المكذبين، الذين جاء القرآن بالرد على شبهاتهم وافتراءاتهم، حيث يقول الله تعالى في نفس السورة، الآية [64]:

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [64] النحل

وتدبر قول الله تعالى في ختام الآية [44]، المشار إليها سابقا: "وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" وهو الختام المناسب لدعوة المختلفين إلى أن يُعملوا آليات عمل قلوبهم، ويرجعوا إلى رشدهم.

وبتدبر قوله تعالى: "لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ"

نجد أن اسم الموصول [ما] وصلته [نُزّل] غير [الذكر] المنزل، والمتقدم في قوله تعالى: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ"، إذ لو كانا شيئا واحدا لاقتضى ظاهر السياق أن يكون:

"لتبينه للناس"، وليس "لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ"

إذن فالمعنى: وأنزلنا إليك هذا القرآن، ليبين لهؤلاء الشاكين المكذبين، حقيقة ما نزل إليهم، وما هم فيه مختلفون.

فلا دليل في هذه الآية مطلقا على حجية ما نُسب إلى رسول الله من "أحاديث"، يزعم أتباع كل فرقة من الفرق الإسلامية أنها "السنة النبوية"، المصدر الثاني للتشريع!! والعجيب أن هذه "الأحاديث" صناعة بشرية قامت على مدارس الجرح والتعديل المذهبية.

إن القوم، الذين بعث الله تعالى فيهم رسوله محمداً، عليه السلام، كانوا أهل فصاحة وبيان، لذلك جعل الله آية صدق رسوله، من جنس ما نبغوا فيه..، فكيف تكون مهمة الرسول أن يفسر لهم أولا ما أنزله الله عليه، ثم يطلب منهم بعد ذلك أن يأتوا بمثله؟!

إن "الذكر" الذي أنزله الله تعالى على رسوله، جاء مبينا لغيره، مما نزل على الناس من رسالات سابقة، أي أن مهمة الرسول أن يبلغ الناس ما نزل القرآن ليظهره.

لقد جاء رسول الله ليظهر لأهل الكتاب، من خلال هذا الذكر الحكيم، ما أخفوه من التنزيل الحق، وما حرفوه. وهكذا يُبطل الله حجج المكذبين، بتذكيرهم بحقيقة حالهم ويكشف ما أخفوه وحرفوه، ويجعل من مهام رسوله بيان ذلك، فتدبر:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ [15] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [16] المائدة

وتدبر قول الله تعالى في نفس السورة:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنْ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [19]

البيان في السياق القرآني:

لقد وردت كلمة البيان في القرآن الكريم بمعنى الإظهار أي إظهار الحكم أو إظهار الخبر، أو إظهار الحق، بوجه عام، كل حسب السياق الذي وردت فيه الكلمة.

فالمعنى العام لكلمة "البيان" هو إلقاء الضوء على شيء موجود، ولكنه كان خفيا غير ظاهر للناس، فيظهره الله تعالى لهم، فهو سبحانه مصدر البيان. يقول الله تعالى:

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ [16] إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [17] فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ [18] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ [19] القيامة

فلم ترد كلمة "البيان"، في القرآن، بمعنى "تفسير القرآن"، المعروف عند المسلمين. لذلك لا يصح أن يفهم المسلم قول الله تعالى: "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ" بمعنى ثم إن على رسولنا تفسيره، لأن هذا الفهم، كما ذكرنا من قبل، يتعارض مع كون القرآن "آية" رسول الله الدالة على صدقه، في بلاغه عن الله، والتي لم يستطع أهل اللسان العربي أن يأتوا بمثلها!!

إذن فليس من المعقول أن تأتي نصوصها غير مفهومة إلا إذا فسرها الرسول، ثم

يخرج الرسول على قومه، ويقول لهم: أنا رسول الله، وهذه هي آية صدقي!!

وعلى فرض أن البيان جاء بمعنى التفسير، فسيبقى السؤال قائما: فهل فسر رسول الله القرآن؟! هل نقلت لنا "منظومة التواصل المعرفي" كتاب رسول الله في تفسير القرآن الذي شهد على تدوينه بنفسه، أم أن أصحاب أمهات كتب التفسير كانوا أكثر فهما ودراية بمعاني القرآن منه، عليه السلام؟!

ألا يعتبر القول بأن بيان الرسول، في هذه الآيات، يعني سنته في تفسير القرآن اتهاما للرسول بالتقصير في حق أمته، وأمانة تبليغ رسالته؟!

إن سياق آيات "سورة القيامة" جاء يعكس حالة رسول الله وقت تلقيه الوحي القرآني وقلقه من أن يتفلت منه جزء، فجاءت الآيات تطمئنه، وتؤكد أن الله تعالى جامع آيات كتابه، ومظهرها على ما سبق من كتب، وعاصم رسوله من الناس، حتى يبلغ رسالة ربه كاملة غير منقوصة.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [67] المائدة

لقد جاء سياق آيات "سورة القيامة" يبين تعهد الله تعالى بحفظ وجمع وإظهار هذا القرآن، وليس ذلك مسئولية رسوله. تدبر قوله تعالى: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ"، "وَقُرْآنَهُ"، "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ".

وهذا دليل على أنه ليس المقصود بالبيان هنا التفسير، لأن السياق يتحدث عن "القرآن كله"، وليس عن بعض آياته، وإلا فأين هذا التفسير الكامل لرسول الله؟!

إن دعوة خاتم النبيين جاءت بينة، في ذاتها، مبينة لغيرها، فهي ليست في حاجة إلى من يبينها، بنصوص تشريعية أخرى، فلنتدبر قول الله تعالى:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ [1] يوسف

طسم [1] تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ [2] الشعراء

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ [1] النمل

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ [12] أَنَّى لَهُمْ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ [13] الدخان

وحتى لا يفهم أحد أن قوله تعالى: "جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ" يعني أن الله تعالى قد فوض رسوله في بيان وتشريع أحكام مستقلة عن أحكام القرآن، ذكر في موضع آخر وفي سياق الحديث عن وجوب طاعة الرسول، أن مهمة الرسول هي "البلاغ المبين". فيقول الله تعالى:

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ [92] المائدة

بل إن سنة جميع الرسل هي البلاغ المبين:

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ [35] النحل

إن القرآن الحكيم مستغن بذاته عن تفسير البشر له، فبيانه قائم بذاته إلى يوم الدين. وسأضرب بعض الأمثلة على مفهوم "البيان القرآني" في سورة البقرة.

- فعن أحكام الخمر والميسر، وأحكام اليتامى، يقول الله تعالى:

يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ [219] البقرة

تدبر قوله تعالى: "لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ"، ففاعلية آليات عمل القلب تظهر في اتباع "البيان القرآني".

- وعن نكاح المشركين والمشركات، يقول الله تعالى:

وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [221] البقرة

تدبر قوله تعالى: "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ". لتعلم أن المذاكرة، والتذكر، والتذكير..، في "البيان القرآني" ذاته.

ـ وعن المحيض، وإتيان النساء، وأحكام الطلاق، يقول الله تعالى:

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [230]

تدبر قوله تعالى: "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ". فالشريعة الإسلامية قامت على العلم بما حمله "البيان القرآني" من أحكام.

ـ وفى ختام أحكام الطلاق، ومتعة المتوفى عنها زوجها، يقول الله تعالى:

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [242]

تدبر قوله تعالى: "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ".

هل وقفت الآن على أهمية تفعيل آليات عمل القلب، في "البيان القرآني" ودورها في استلهام عطاء "الآية القرآنية" المتجدد على مر العصور؟!

تدبر مرة أخرى:

"لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ" . "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" . "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" . "لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ".

يقول الله تعالى في سورة النور:

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [1]

تدبر قول الله تعالى: "وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ"، ثم قوله بعدها: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ".

ثم يأتي بعدها مباشرة بوصف فعل الزنا، وعقوبته العامة الواحدة، فيقول تعالى:

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ [2]

تدبر هذا البيان، الذي لا شبهة في فهمه، لعقوبة الزنا: "فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ"، من غير تقسيم لفعل الزنا إلى زنا "محصن"، عقوبته الرجم، وزنا "غير محصن" عقوبته الجلد!!

والسؤال: هل يمكن أن يفوض الله تعالى رسوله أن يستقل بهذا التقسيم عن التشريع القرآني، فيختص القرآن بالعقوبة المخففة "الجلد"، ثم تأتي "السنة النبوية" بالعقوبة المغلظة وهي "القتل"؟!

إن القرآن الحكيم لم يفرق بين محصن، وغير محصن، في عقوبة الزنا، وجاء بعقوبة واحدة، وهي الجلد. فإذا تدبرنا قول الله تعالى بعد ذلك، في سياق بيان أحكام اللعان، أن عقوبة "المحصن" هي العذاب، والذي أشارت إليه الآية [2]: "وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا.."، علمنا أن عقوبة الزنا للمرأة المتزوجة [أي المحصنة] هي الجلد، وليس الرجم، فتدبر:

وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ [8] النور

ذلك أن الآيات جاءت تبين أحكام اللعان: فالمرأة الحرة، التي اعترفت بارتكابها الفاحشة، وأقرت باتهام زوجها لها، تستحق عقوبة الزنا التي وصفتها الآية بالعذاب. فإن لم تعترف، سقطت عنها العقوبة: "وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ..."، ووجبت عليها أحكام اللعان: "...أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ"، التي بينتها الآيات [10-6].

ولقد وصف الله تعالى عقوبة الزنا بالعذاب، وجاءت كلمة "العذاب" معرفة بأل العهدية، أي العذاب المعهود، أي السابق تعريفه والمشار إليه في قوله تعالى [الآية2]: "وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا".

واللافت للنظر، أنه مع بيان الله تعالى لطبيعة هذه العقوبة، وأنها عذاب، وليست موتا، فإن أنصار المذهبية يصرون على أن "السنة النبوية" هي التي جاءت ببيان أن عقوبة الزانية، أو الزاني، المحصنين، هي الرجم، أي الموت!!

لقد فرق الله تعالى بين العذاب والقتل في أكثر من موضع في القرآن الكريم، حتى لا يدعي مدع أن العذاب يمكن أن يكون قتلاً، أو ما يؤدي إلى القتل!!

إنهم يريدون أن يحمل "العذاب" معنى "القتل"، أي الرجم، الذي هو من موروثات الشريعة اليهودية، فينجح الشيطان بذلك في اختراق أحكام القرآن، بشريعة موروثة عن اليهود، باسم "السنة النبوية"، التي لا وجود لها مطلقا في كتاب الله تعالى!!

لقد فرق القرآن الكريم، في محكم التنزيل، بين "العذاب" و"القتل"، فتدبر:

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ [20] لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ [21] النمل

ولقد فرق السياق القرآني بين "الرجم" و"العذاب"، فقال تعالى:

قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ [18] يس

لقد استخدم السياق القرآني كلمتي "الرجم"، و"العذاب"، وفرق بينهما، فما الحكمة في أن تأتي عقوبة العذاب، "الجلد"، في مصدر قطعي الثبوت عن الله تعالى، وتأتي عقوبة الموت، "الرجم"، في مصدر ثان ظني الثبوت عن رسول الله، مختلف في حجية نصوصه، بين كافة علماء الفرق المختلفة؟!

إن العذاب لا يكون إلا للنفس الواعية، حيث الإحساس بالألم، لذلك كان وعيد جهنم عذاباً، تتبدل فيه الجلود، وليس موتاً، فتدبر:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً [56] النساء

والسؤال: لماذا خص الله سورة النور، بهذه المقدمة المحكمة؟!

فتدبر مرة أخرى:

"سُورَةٌ"– "أَنزَلْنَاهَا"– "وَفَرَضْنَاهَا"– "وَأَنزَلْنَا فِيهَا"– "آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ"– "لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ".

والجواب: لأن حرمة الدم من أعظم الحرمات عند الله تعالى، فلا تسفك الدماء إلا بالحق الذي أنزله الله، وفرضه في كتابه.

فهل من المنطق أن يقول الله تعالى، إنه أنزل في هذه السورة "آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ"، ثم يأتي علماء السلف ويقولون:

إن "السنة النبوية" جاءت تبين هذه الآيات، وتأمر بسفك دم الزاني المحصن، أو الزانية المحصنة؟!

فإذا ذهبنا إلى سورة النساء، وجدنا أن الأمة إذا زنت وهي متزوجة، فعليها نصف عقوبة الحرة:

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنْ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [25] النساء

والمراد بالمحصنات في قوله تعالى: "الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ"، "الحرائر"، في مقابل "الإماء"، المشار إليهن في قوله تعالى: "مِنْ فَتَيَاتِكُمْ".

وسمي الحرائر بالمحصنات لأنهن أحصن بحريتهن عن الأحوال التي تكتنف الإماء مختارات كن أو مكرهات، فهذه هي طبيعة عملهن الممتهن، والمبتذل، بخلاف الحرائر المحصنات، المصونات، البعيدات عن هذه الصفات غير الحميدة.

ونلاحظ أن الإحصان جاء في الموضع الأول بمعنى "الحرية"، وفي الثاني بمعنى "العفة"، وفي الموضع الثالث بمعنى "النكاح"، وعاد مرة أخرى إلى معنى "الحرية" في الموضع الأخير

فنحن، في سياق هذه الآية، أمام حكمين:

الأول: يتعلق بزنا الحرة، وعقوبتها مئة جلدة، كما بينت آية سورة النور، سواء أكانت بكرا أم ثيبا.

والثاني: يتعلق بزنا الأمة، إذا تزوجت، وعقوبتها خمسون جلدة، كما بينت آية سورة النساء.

وهناك ملاحظة أخيرة، وهي أن الله عقب على أحكام النساء، بقوله تعالى:

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [26] النساء

وعلى أحكام الزنا، واللعان، والإفك، بقوله تعالى:

وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [18] النور

فالله تعالى وحده هو مصدر "البيان القرآني"

. مسألة طاعة الرسول

لقد أمر الله المؤمنين بطاعته، وطاعة رسوله، فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً النساء [59]

وسأبدأ حديثي، عن مسألة "طاعة الرسول"، بسؤال منطقي:

هل كانت المرجعية الإلهية، المدونة في عصر الرسالة، التي تستمد منها أحكام الشريعة الإلهية، التي أمر الله تعالى المؤمنين بطاعة الله ورسوله فيها..، هل كانت كتابا واحدا، هو كتاب الله تعالى، الذي هو بين أيدينا اليوم؟! أم كانت عدة كتب: كتاب الله تعالى..، ومعه أمهات كتب الأحاديث المنسوبة إلى النبي، والتي هي بين أتباع الفرق والمذاهب المختلفة اليوم؟!

وإذا كان علماء ودعاة هذه الفرق المختلفة، يؤمنون حقا بأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد، عليه السلام، كتاب الله ومثله معه..، وهذا المثل هو أمهات كتب الأحاديث الصحيحة الموجودة بين أيديهم اليوم..، فهل أشرف رسول الله على تدوين هذه الأحاديث بنفسه، كما أشرف على تدوين كتاب الله؟!

أنا لا أنتقص من قدر، ولا من علم، أحد من علماء السلف أو الخلف، بتخصصاتهم العلمية المختلفة، وإنما أنا أمام بحث علمي، وأزمة سفكت، ومازالت تسفك، بسببها الدماء بغير حق، وهي مسألة "طاعة الرسول"، التي يراها أتباع الفرق والمذاهب المختلفة متمثلة في اتباع "سنته النبوية"، فإذا ذهبنا إلى الأحاديث التي تستقى منها هذه "السنة النبوية"، وجدنا اختلافا كثيرا، وتخاصما..، بسبب اختلاف مدارس الجرح والتعديل، التي قامت عليها هذه الأحاديث، وشروط التصحيح والتضعيف المتناقضة!!

فإذا نظر الباحث المسلم الجاد، الذي يخشى الله تعالى، ويخاف أن ينسب إلى رسوله شيئا لم يأذن به الله، إذا نظر إلى هذا الصراع المذهبي، حول صحة هذه الأحاديث وضعفها، والقائم بين المحدثين وعلماء الجرح والتعديل إلى يومنا هذا... كيف يجد "طاعة الرسول" وسط هذا الكم الهائل من الروايات المتناقضة المتخاصمة؟!

وإذا كان المسلمون قد ورثوا كتاب الله تعالى كتاباً واحداً، لا خلاف بين علمائهم حول حجيته، وصحة ثبوته عن الله تعالى، على وجه اليقين..، فأي كتاب حديث، من كتب الفرق والمذاهب المختلفة، قد صحت نسبته إلى رسول الله، على وجه اليقين؟!

وهل يعقل أن ينزل الله تعالى مصدرا تشريعيا ثانيا، يكفر منكره، ولا يكون بهذه الصفة، من حيث صحة الثبوت عن الله تعالى، كصحة ثبوت كتاب الله، الذي لم تثبت صحته عن طريق الرواة، وإنما بما حمله في ذاته، من أدلة وبراهين حجيته؟!

إن صحابة رسول الله، لم يكن في ذهنهم أصلا تدوين أحاديث رسول الله، وإلا لجاءتنا كما جاء القرآن، إن كانت حقا من دين الله واجب الاتباع, فكيف لنا أن نتحقق اليوم، حسب أصول منهج التحقيق العلمي، من صحة وصدق نقل الرواة عن رسول الله وبينهم وبين عصر تدوين أمهات كتب الحديث ما لا يقل عن قرنين من الزمان؟!

إن المسألة في غاية الخطورة، على إسلام المرء وتوحيده، لأنها تتعلق بطاعة الله وطاعة رسوله، ولا يعقل أن تقوم هذه الطاعة، على مرويات عشوائية مذهبية، إن صحت عند فريق لم تصح عند آخر!!

لقد اعتبر القرآن الكريم كل من لم يرض بحكم رسول الله، بعد رد أمر التنازع إليه كافراً مخلداً في جهنم، وقد جاء هذا التحذير في سياق آيات خوطب بها المسلمون فتدبر:

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [13] وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ [14] النساء

تدبر العلاقة بين الأمر بطاعة الله ورسوله، والجزاء المترتب على ذلك في الآخرة وهو الجنة..، وبين النهي عن معصية الله ورسوله، والجزاء المترتب على ذلك في الآخرة وهو جهنم!!

الأمر الذي يفهم منه أن طاعة الله ورسوله [أو معصيتهما] من أصول الدين التي يتوقف عليها إسلام المرء أو كفره، والتي يستحيل أن تخضع نصوصها لاجتهادات البشر، ومذاهبهم في التصحيح والتضعيف.

ولمزيد بيان لهذه المسالة نتدبر هذه المجموعة من آيات سورة النساء:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً [59] النساء

لقد سبق هذه الآية أمر من الله تعالى للمؤمنين، بإقامة العدل في حياتهم. ثم جاءت هذه الآية تأمرهم بطاعة الله [المشرع] وطاعة ولاة أمور المسلمين [المنفذين] لشريعة الله تعالى، ففي طاعتهم مظهر تفعيل هذا العدل وتحققه بين الناس.

ولقد كان رسول الله، عليه السلام، في عصر الرسالة، هو إمام وولي أمر المسلمين لذلك كان المستحق لمطلق الطاعة، فهو القائم على تنفيذ شريعة الله بين الناس. لذلك لزم التفريق بين طاعة الإله المشرع، وبين طاعة القائمين على تنفيذ شريعته، بدءا برسول الله، ثم ولاة الأمور.

وهذا ما بينه القرآن على وجه الدقة بالفصل بين:

المرجعية التشريعية: اتباع "النص التشريعي الإلهي"..........."أَطِيعُوا اللَّهَ".

والمرجعية التنفيذية: اتباع القائمين على تنفيذ شريعة الله بين الناس...... "وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ". ونلاحظ عدم إضافة الطاعة لـ "أولي الأمر" لدخولها ضمن طاعة الرسول، كجهة تنفيذية، تبدأ بالمسئول التنفيذي الأول [الحاكم] ثم ما يتبعه من مستويات تنفيذية أخرى.

لذلك جاء رد التنازع إلى الله والرسول فقط، أي إلى "النص التشريعي الإلهي" الذي يجب أن يؤمن به كافة المسلمين، حكاما ومحكومين..، ثم إلى الحاكم القائم على تطبيق وتنفيذ هذا النص بين الناس، من الناحية العملية.

فإذا كان "النص التشريعي الإلهي" الذي سيرد إليه أمر التنازع، في عصر الرسالة كتابا واحدا، هو كتاب الله تعالى، والقائد والحاكم القائم على تنفيذ أحكام هذا الكتاب بين الناس، هو رسول الله، إذن فيجب أن يستمر هذا "الكتاب الإلهي" قائما بين الناس يحكم به، بعد وفاة الرسول، ولاة أمور المسلمين، إلى يوم الدين، بوصف أن هذا "الكتاب" هو رسالة الله العالمية الخاتمة، وآيته الدالة على صدق رسوله، عليه السلام.

لذلك لم يربط الله تعالى حجية كتابه بحياة رسوله محمد، فجعل الكتاب "آية قرآنية" متجددة العطاء، على مر العصور، وإلى يوم الدين. فهل يمكن أن تقوم مرويات الفرق

والمذاهب المختلفة مقام "الرسول" الذي لم نعرفه إلا من خلال "آيته القرآنية"؟!

هل يستوي تحقق طاعة الرسول، وهو يعيش بين قومه وصحبه الكرام، في عصر الرسالة، والتي يتوقف عليها إسلام المرء أو كفره..، مع طاعة الرواة والمحدثين فيما نقلوه إلينا من مرويات الفرق والمذاهب المتخاصمة، المنسوبة إلى رسول الله، كل حسب ثقافته ومعارفه وتوجهاته العقدية والتشريعية؟!

إنه يستحيل مساواة طاعة رسول الله، عليه السلام، في حياته، بطاعة المرويات المذهبية، التي نسبها رواة المذاهب المختلفة إليه بعد وفاته!!

إن المتدبر للسياق القرآني، يعلم علم اليقين، أن الرد إلى الله تعالى هو الرد إلى آيات ذكره الحكيم، وهذا قائم بين الناس إلى يوم الدين. أما الرد إلى رسول الله فيخص عصر الرسالة، حيث كان يمكن تحققه على وجه اليقين، سواء أكان بالفصل في مسائل النزاع بين المسلمين، أم بينهم وبين ولاة أمورهم في البلاد.

لذلك فإن عطف الرسول على لفظ الجلالة، "أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ"، عطف بدهي منطقي، لبيان أن القائم على تنفيذ شريعة الله بين الناس، كان في عصر الرسالة بشراً مثلهم، يُرد إليه أمر التنازع، بصفته إمام وولي أمر المسلمين. ولقد بين السياق القرآني ذلك بقوله تعالى، بعد آية من السابقة:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً [61] فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً [62] أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً [63] النساء

لقد بين الله تعالى أن المرجعية المدونة، سواء أكانت مرجعية عصر الرسالة، أم العصور التي بعده..، فهي محصورة في هذا المُنزَّل: "تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ". إذن فما هو هذا "المنزل"؟! ولقد سبق بيان ذلك، في الموضوع السابق، "خصائص النص التشريعي الإلهي" الخاصية الرابعة، "تنزيل رب العالمين"، فيرجع إليه.

كما أن علماء المسلمين كافة لا يملكون دليلاً قطعي الثبوت عن الله تعالى، يثبت أنه عز وجل أنزل على رسوله نصاً تشريعياً ثانيا، يستكمل به ما نقص من أحكام كتاب الله

تعالى!! لذلك فإن قوله تعالى: "وَإِلَى الرَّسُولِ" لا يعني مطلقا: تعالوا إلى أحاديث الرواة والمحدثين، وعلماء الجرح والتعديل، واختلافاتهم المذهبية!!

إنه لا دليل مطلقا، على أن كل ما كان يتلفظ به الرسول، من حديث يومي مع قومه، كان مصدرا تشريعيا واجب الاتباع، ككتاب الله تماما!! وقد سبق بيان ذلك في الموضوع السابق، "خصائص النص التشريعي الإلهي" الخاصية الثانية، "وحي إلهي" فيرجع إليه.

إن قول الله تعالى "تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ" يعني الحضور والتواجد أمام الرسول شخصيا، الأمر الذي بينه قوله تعالى بعد ذلك: "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ...". فكيف يُعرض عنهم رسول الله بعد وفاته؟! وكيف يكون المعرض، أو المنكر، لمرويات رواة الفرق المختلفة، معرضا أو منكرا لشخص الرسول ولسنته؟!

ألم ينكر علماء الحديث، منذ عصر التدوين، وإلى يومنا هذا، كثيرا من مرويات الفرق والمذاهب المختلفة، كل حسب مدرسته في الجرح والتعديل، وشروطه في التصحيح والتضعيف؟! ألم تشهد أمهات كتب الحديث، بفروعه المختلفة، على ذلك؟! ألم تشهد على ذلك مواقع الفرق والمذاهب المختلفة، على شبكة الإنترنت العالمية؟!

كيف يتحول الرد إلى شخص الرسول في حياته، والذي كان له في عصر الرسالة نفس قوة الأمر التي هي في الرد إلى الله تعالى: "فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ".., كيف يتحول هذا الرد إلى مرويات الفرق والمذاهب المختلفة؟!

متى سنهتم بديننا..، ونقرأ ما يحدث حولنا..، لننتزع أنفسنا من منظومة الآبائية؟!

ويزيد السياق القرآني الأمر وضوحا، فيقول الله تعالى بعدها:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً [64]

فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً [65] النساء

فهل يمكن أن تحل مرويات الفرق والمذاهب المختلفة محل رسول الله، في هذا

السياق القرآني؟! هل قوله تعالى: "جَاءُوكَ" يمكن أن تعني جاءوا المرويات التي نسبها الرواة إليه؟! وهل قوله تعالى: "يُحَكِّمُوكَ" يمكن أن تعني يحكموا المرويات التي نسبها الرواة إليه؟!

وهل قوله تعالى: "مِمَّا قَضَيْتَ" يمكن أن يعني مما قضى به الرواة والمحدثون؟! ثم كيف نحقق قوله تعالى: "وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً"، أمام هذا الكم الهائل من المرويات، التي نسبها الرواة، والمحدثون، وعلماء الجرح والتعديل..، إلى رسول الله، والتي إذا وضع لها برنامج، على "الكمبيوتر"، يستطيع التعرف على أحوال الرواة، الذين نقلوا هذه المرويات وكيف تمت عملية توثيق علماء الجرح والتعديل لهم..، لاكتشفنا أن جل رواة القرن الأول الهجري، وهم الحلقة الأولى من سلسلة حلقات "السند الروائي"، التي إذا سقطت سقط الحديث كله..، هؤلاء قد تم توثيقهم من غير معاصريهم!!

ولا يقولن قائل: لقد كان من رواة القرن الأول الهجري، صحابة رسول الله وهؤلاء استمدوا عدالتهم من صحبتهم لرسول الله، ثم جاء بعدهم التابعون، وهؤلاء استمدوا عدالتهم من صحبتهم لصحابة رسول الله، ثم جاء تابعوا التابعين..، وهكذا حتى جاء عصر التدوين، بعد قرن ونصف قرن من الزمان، على أقل تقدير، فلم يجد علماء الجرح والتعديل مدونات موثقة [ممن قبلهم] تبين أحوال رواة "القرن الأول"!!

لذلك لم يجد علماء الجرح والتعديل أمامهم إلا سبيلا واحدا، وهو إبداء الرأي في الراوي، حسب اجتهاداتهم الشخصية، وتوجهاتهم العقدية والتشريعية، فأصحاب المذهب السني لا يقبلون رواية "الشيعي" والشيعة لا يقبلون رواية "السني"، وهكذا وصلت إلينا "الأحاديث" المنسوبة إلى رسول الله!!

وما ذكرته سابقا شيء يسير من إشكاليات علم الحديث المذهبي، ليس كلاما مرسلا فمعظم "أهل الحديث" يعلمون جيدا صحة ما ذكرت، وعلى من يرى غير ذلك أن يكتب لنا كتابا واحدا فقط، لا نطلب غيره، عن توثيقات رواة القرن الأول الهجري، كيف تمت وهل الطريقة التي تمت بها هذه التوثيقات، تصلح أن تقوم عليها نصوص مصدر تشريعي إلهي، يكفر من ينكره؟!!!

إن الفهم الواعي لسياق الآيات التي جاءت تتحدث عن طاعة الرسول، يجب أن ينطلق من قاعدة تنزيه الله تعالى عن كل عيب ونقص في شريعته، وفي اصطفائه

لرسوله. إننا أمام دين إلهي، وليس تراثا بشريا يمكن التعامل معه بالظن أو بغلبة الظن أو بـ "يمكن"..، أو "يجوز"..، أو "احتمال"..، كل هذه الكلمات التي ملئت بها أمهات كتب تراث الفرق والمذاهب المختلفة، ويظن مؤلفوها أن استخدامهم لها سيخرجهم، أو سيعفيهم، من مسئوليتهم أمام الله تعالى!!

فتدبر هذه المجموعة من الآيات لتزداد المسألة وضوحا:

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [51] وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ [52]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [53]

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ [54] النور

لاحظ أن السياق القرآني يقول: "لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ"، ولم يقل "ليحكما"، والذي يدل على أن المشرع واحد، وهو الله تعالى، وأن رسول الله هو المنفذ لشريعته، ثم يتحول الأمر إلى ولاة أمور المسلمين، بعد وفاته، عليه السلام.

فعندما يكون كتاب الله، وآيته القرآنية، هي المرجعية في رد التنازع بعد وفاة الرسول من خلال ولاة الأمور، تتساوى هنا فاعلية الأمر الإلهي بطاعة الله ورسوله في عصر الرسالة، مع فاعليته في العصور التالية، ويصبح قول المسلمين، "سمعنا وأطعنا" له فاعليته على مر العصور. ويزداد الأمر وضوحا بتدبر هذه الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ [20]

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ [21] إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ [22] وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [23]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [24] الأنفال

إنه بتدبر سياق الآيات التي جاءت تأمر الناس بطاعة الرسول، نلاحظ أنها جاءت تخاطب المعاصرين لرسول الله، في فترة التنزيل واكتمال الدين.

وتدبر أيضاً هذه الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [27] وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [28]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [29] وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [30]

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ [31] قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [32] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [33] الأنفال

إن فائدة السمع هي العمل بالمسموع، والذي يسمع الحق ولا يعمل به كالذي لم يسمع، فَهُما سواء في عدم الانتفاع بذلك المسموع، ولما كان الأمر بالطاعة كلاما يجب أن يطاع، فقد ظهر المقصود بقول الله تعالى: "وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ" وقولهم: "قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا"!!

وكلها مواقف لا يمكن تفعيلها بأي حال من الأحوال بعد وفاة الرسول، إلا بالقياس على موضوعاتها، وما يخص منها ولاة الأمور ليقوموا بتنفيذها.

إن جميع الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله، والمدونة اليوم في أمهات الكتب، كان مصدرها الأول هو النقل الشفهي، وذلك قبل تدوينها بقرن ونصف قرن على أقل تقدير. ثم عندما بدأ التدوين كانت سلسلة الرواة قد فقدت مصدرها الرئيس الذي استقى منه

الرواة مروياتهم، ألا وهو رسول الله، وصحبه الكرام، فهم المرجع الوحيد الذي يعلم ما صح من هذه المرويات وما لم يصح.

فكيف نساوي بين الرد إلى الرسول في حياته، والرد إلى الرواة المحدثين؟!

إنني لا أنكر أن يكون لرسول الله، عليه السلام، أحاديثه اليومية مع صحابته وقومه فهذه بدهية ومسلمة عند كل مسلم عاقل.

ولكن قضيتنا ليست في أن الرسول تحدث أم لم يتحدث، فلو كنا معه في عصر الرسالة، أو لو كان هو معنا في عصرنا، ما وسعنا إلا طاعته طاعة مطلقة.

لقد كان عصر الرسالة عصر تنزيل واكتمال للدين، تفاعل فيه الوحي القرآني مع الواقع الحياتي، للمعاصرين لرسول الله، لقد كان التفاعل الأول للتنزيل الحكيم. وليس بالضرورة أن تشمل آية رسول الله القرآنية، العالمية الخالدة، كل أحداث هذا العصر ومواقف رسول الله وصحبه الكرام، والتي قد يحفظها الصحابة حبا لرسول الله وتتناقلها ألسنتهم، ثم يأخذها عنهم التابعون..، وهكذا حتى وصل هذا الكم الهائل من مرويات الفرق والمذاهب المختلفة إلى عصر التدوين، فإذا المحدثون يعدّونها مصدرا ثانيا للتشريع!!!

وتدبر أيضا هذه المجموعة من الآيات:

مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً [80]

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً [81]

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً [82]

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً [83] النساء

إنه بتدبر الآيات السابقة، نلاحظ أنها جاءت تؤكد على التفاعل الحي، بين رسول

الله عليه السلام، وقومه، وطاعته الواجبة عليهم، والمتمثلة في الإيمان بـ "آيته القرآنية" واتباع شريعتها.

كما جاءت تبين ضرورة أن يستعين أولو الأمر بأهل الحكمة والعلم والخبرة، في مجالات الحياة المختلفة، وأن يكونوا على دراية بمستجداتها وتطورها، لاتخاذ القرار السليم بشأنها. تدبر قوله تعالى:

"وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ"

لقد بين القرآن الحكيم، أن على الناس أن يردوا مسائل النزاع بينهم، وما يهدد أمن البلاد...، إلى ولاة الأمور، أهل الرأي والاختصاص..، أي الجهات الرسمية المسئولة عن تحقيق أمن مواطنيها. لذلك عقب السياق على ذلك بقول الله تعالى: "لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ"، ولم يقل الله تعالى: لعلمه الرسول..، في الوقت الذي كان أمر الرد للرسول ولأولي الأمر معا.

إن الأمر بالطاعة أمر عام قد جاء السياق القرآني ببيان موضوعه، ومن ذلك أحكام الشريعة. إن الأمر بالطاعة جاء ليحافظ على وحدة الأمة، وعلى سلامة تصرفات أفرادها، فتدبر:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [90]

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ [91]

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ [92] المائدة

فهل لدى علماء الفرق والمذاهب المختلفة، أصحاب منابر الدعوة، المحلية والفضائية، بلاغ مبين من رسول الله غير القرآن؟!

أريد أن يكتب أحدهم كتابا، واحدا، في كيف يمكن وصف المرويات التي نسبها رواة الفرق والمذاهب المختلفة، إلى رسول الله، بـ "البلاغ المبين"!! ولا يخرج علينا أحدهم

بكتاب يحكي فيه وجهة نظر علماء فرقته، أو مذهبه..، فهذا ليس هو محل البحث العلمي، هذا إذا كان يعتقد أن رسول الله، عليه السلام، رسول لكل المسلمين!!

أما إذا كان يعتقد أن علماء وأئمة فرقته هم وحدهم المسلمون، وغيرهم ليسوا كذلك فأنا لا أوجه سؤالي لأمثال هؤلاء، بل ولا أخاطبهم أصلا بهذه السلسلة من الدراسات:

"نحو تأصيل الفكر الإسلامي".

لقد حذر الله تعالى الناس من افتراء الكذب على رسوله، وابتداع مصادر تشريعية ما أنزل بها من سلطان.

لقد ضرب الله تعالى لنا المثل، بما فعله أتباع رسوله عيسى، عليه السلام، بعد وفاته، وما أحدثوه في رسالته من تحريف وافتراء على الله تعالى، الأمر الذي وصل إلى حد تأليهه، فتدبر:

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ [116]

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [117] المائدة

تدبر قوله تعالى: "وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ"، والذي يبين أن مسئولية الرسل مرتبطة بفترة دعوتهم، حيث تكون شهادتهم على أقوامهم شهادة واقعية حقيقة.

لذلك، فإن ما شهد الله ورسوله على صحته، وحجيته، كنص تشريعي إلهي واجب الاتباع، هو ما يجب على المسلمين كافة، أن يتبعوه، ويعملوا به. ذلك أن من خصائص "النص التشريعي الإلهي" أنه لا يأتيه الباطل، فلا يتغير، ولا يتبدل، ولا يخضع لمدارس الجرح والتعديل ولا لشروط التصحيح والتضعيف، فحجيته لا تثبت إلا بحفظ الله تعالى له، كآية للعالمين، وإلى يوم الدين.

فماذا على علماء المسلمين لو أنهم اجتمعوا حول كتاب الله تعالى، وما اتفق عليه المسلمون كافة، من كيفيات الأداء العملي، لما أجمله هذا الكتاب من أحكام..، ثم ما

دون ذلك، يجعلوه مباحاً حتى يتفقوا؟!

ألا يمكننا بذلك أن نقترب من عصر الرسالة، ومن التخلق بخلق "الربانية" أسوة برسول الله، واتباعا لهذه السنة الكريمة، التي تخلق بها صحبه الكرام..، حفاظا على وحدة الصف، وإعلاء لكلمة الله، وتحملا لمسئولية الشهادة على العالمين؟!

3. وما آتاكم الرسول فخذوه...

لقد ورد هذا المقطع في قوله تعالى من سورة الحشر:

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [7]

فهل قوله تعالى: "وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" أمر من الله تعالى للمؤمنين، المعاصرين لرسول الله فقط، بطاعته طاعة مطلقة، قبل ظهور الفرق والمذاهب المختلفة؟! أم أمر لكافة المسلمين، بعد ظهور الفرق والمذاهب المختلفة؟!

وإذا كان أمرا لكافة المسلمين، بعد ظهور الفرق والمذاهب المختلفة، فأية فرقة هي التي آتاها الرسول أحاديثه الصحيحة، وكيف لنا أن نتحقق من ذلك؟!

إن المتدبر لسياق الآية، يعلم أن الأمر بطاعة الرسول، أو النهي عن معصيته، قد سبقه حديث عن توزيع مال الفيء، وهو موضوع تحدثت عنه آيات أخرى، كما ورد في سورة الأنفال من حديث عن توزيع مال الغنيمة، وعن مصارفه.

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [41] الأنفال

إن الآية تخاطب، في المقام الأول، صحابة رسول الله، تبيّن لهم وجوب الالتزام بأوامر رسول الله، والرضا بحكمه، في توزيع الغنائم. والمتدبر لسياق الآية، وآية سورة الحشر، يتبين له مدى مسئولية رسول الله عن توزيع هذه الغنائم، وكذلك الفيء، بصفته القائد الأعلى للجيش.

ويبدو أن خلافا قد نشب بين صحابة رسول الله، بخصوص هذا التوزيع، فنزل الوحي القرآني يحسم هذا الخلاف، كما يبيّن ذلك سياق آيات سورة الحشر التالية:

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً

وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ [8]

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [9] الحشر

وكما هو ملاحظ، فإن جملة "مِمَّا أُوتُوا"، في هذه الآية، تشير بالدلالة القطعية إلى قوله تعالى، في الآية [7] من سورة الحشر: "وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ"، وهو ما يتعلق بتوزيع الفيء.

والمعنى أنه ما كان لصحابة رسول الله أن يتكلموا أصلا في غنائم أو فيء، وهم المهاجرون الذين تركوا وراءهم كل شيء، والأنصار الذين آووا المهاجرين وأشركوهم ديارهم وأموالهم ولم يجدوا في صدورهم شيئا مما أوتي المهاجرون، بل وآثروهم على أنفسهم، "وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ".

ولقد كان للمنافقين موقف من توزيع رسول الله للصدقات، فإذا رأوها توزع على غيرهم طعنوا ولمزوا..، فيقول الله تعالى:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ [58]

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ [59] التوبة

وتدبر العلاقة بين قوله تعالى: "وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ"، وقوله في هذه الآية: "مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ".

لا شك أن إيتاء الله هو عين إيتاء الرسول، فالله تعالى هو المشرع، ورسوله هو القائم على تفعيل شريعة الله بين الناس.

إن أمر الأنفال ليس حقا خالصا للمسلمين، كي يتنازعوا عليه، وإنما لابد من استيفاء الخمس للمصارف، التي بينتها الآيات، ليبقى أربعة أخماسها للمقاتلين.

يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ [1] الأنفال

أما الفيء، الذي ورد في سورة الحشر، فيذهب جميعه إلى ولي أمر المسلمين ليتصرف فيه حسب المصارف التي أشارت إليها الآية، وعلى المسلمين الرضا بحكم رسول الله في هذا التوزيع، فهو ولي أمرهم، وقائدهم الأعلى.

لذلك فإن استقطاع هذا الجزء "وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا" من سياق الآية التي ورد فيها..، ثم من سياق الآيات بعدها..، ثم من سياق آيات سور أخرى..، عمل مذهبي، لا يفعله إلا عالم المذهب الديني، لا عالم الدين الإلهي..، عمل لا يرضى عنه الله تعالى، ولا رسوله، عليه السلام.

لقد كان لعصر الرسالة طبيعته الخاصة، التي تفرض على كل من آمن برسول الله أن يطيعه طاعة مطلقة، فرسول الله أمامهم، يسمعون منه مباشرة، والوحي الإلهي يباشر مواقفهم، ويتنزل بما يصحح أحوالهم، ويهديهم إلى صراط ربهم المستقيم.

إن الله تعالى لن يناله من هذه الأنفال شيء، ومع ذلك قال تعالى: "الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ"، وذلك لبيان أن الله تعالى هو المشرع، وأن رسوله هو القائم على تنفيذ هذه الشريعة بين الناس.

لماذا لا يجتمع علماء الفرق والمذاهب المختلفة اليوم حول آية رسول الله القرآنية كما اجتمع عليها صحبه الكرام، يستقون من نورها فقهاً قرآنياً معاصراً؟! ما المشكلة في أن يثبت علماء المسلمين للعالم أجمع أن هذا القرآن هو "الآية" الدالة على صدق الله فيما أنزل، وصدق رسوله فيما بلغ، والحجة القائمة بين الناس إلى يوم الدين؟! ولماذا يصرون على فهم نصوص "الآية القرآنية"، فهما مذهبيا يستخدمه علماء ودعاة كل فرقة، للدفاع عن توجهها العقدي، والتشريعي؟!

فهل يعقل، على سبيل المثال، أن توصف مرويات المذاهب المختلفة، بـ "الحكمة" لتتساوى بذلك، من حيث حجيتها، مع نصوص "الآية القرآنية"، بدعوى أن الله تعالى هو الذي أنزل على رسوله هذه المرويات، وهو، عز وجل، الذي سماها "الحكمة"؟!

تعالوا نقف على مفهوم "الحكمة" في سياقها القرآني

4. الحكمة في السياق القرآني

إن الحكمة المنزلة، نعمة من الله تعالى، يؤتيها من يشاء من عباده.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [269] البقرة

ولقد آتى الله آل إبراهيم الحكمة:

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً [54] النساء

وآتى داود الحكمة:

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [251] البقرة

وآتى عيسى الحكمة:

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ [48] آل عمران

وآتى الله رسوله الخاتم محمدا الحكمة:

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً [39] الإسراء

إذن فالحكمة المنزلة على رسول الله محمد، عليه السلام، ليست نصوص تراث بشري، تخضع للتصحيح والتضعيف، حسب شروط واجتهادات علماء الفرق المختلفة وإنما هي وحي إلهي، أي إيتاء من الله تعالى، يحمل للناس أصول الشريعة الحكيمة وأحكامها المستقيمة، مَن تمسك بالعمل بها، آتاه الله خيرا كثيرا.

ودليل ذلك، ما سبق هذه الآية من آيات، جاءت تجمع أصول الشريعة الحكيمة واجبة الاتباع، والتي تبدأ بالتوحيد الخالص:

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً [22] الإسراء

وتنتهي هذه الأحكام بقوله تعالى:

وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً [37] كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً [38]

ثم يعقب الله تعالى على هذه الأحكام بقوله تعالى:

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً [39] الإسراء

فهل يمكن أن تتساوى حجية هذه الأحكام، وقطعية ثبوتها عن الله تعالى، ووجوب العمل بها..، مع مرويات المذاهب المختلفة؟! لذلك كانت هذه "الحكمة" من محتوى الوحي القرآني، وصفة من صفاته، نزلت مع الكتاب، على رسول الله، عليه السلام. ولقد جاء السياق القرآني ببيان ذلك، في دعاء إبراهيم، عليه السلام.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [129] وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ [130] البقرة

ولقد استجاب الله تعالى لدعوة إبراهيم، عليه السلام، فقال تعالى:

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ [164] آل عمران

وجعل سبحانه وتعالى إنزال الكتاب والحكمة، من نعم الله وفضله على الناس:

وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً [113] النساء

والسؤال: هل "الحكمة"، في ذاتها، مصدر تشريعي مستقل بأحكامه عن كتاب الله؟!

وإذا كانت مصدرا تشريعيا، ككتاب الله، إلا أنها استلقت عنه بالتشريع..، إذن فلماذا اختلفت طبيعة نصوصها، وخصائصها، عن كتاب الله تعالى، فلم يحفظها الله تعالى كما حفظ نصوص كتابه؟!

وإذا كانت "الحكمة" هي "السنة النبوية"، فلماذا لم يتوارث الأجيال هذا المصطلح القرآني "الحكمة" وتوارثوا "السنة"؟!

تعالوا إذن نفهم معا "الحكمة" في سياقها القرآني. قال تعالى:

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [129]

لقد بين سياق الآية أن منهج التعلم "المتلو" على الناس هو الآيات القرآنية، تلك التي من درسها، وعمل بها، زكت نفسه، وصار حكيما.

وإن القائم بهذه العملية التعليمية الحكيمة، لا يمكنه أن يخرج عن المنهج الذي أمر الله رسوله بتلاوته، وهو "الآيات"، التي احتواها هذا "الكتاب"، وذلك لقوله تعالى عن الخطوة التالية، وهي العملية التعليمية: "وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ".

ومن هذه الحكمة المتعلمة، تعلم كيف توضع الأحكام "المتلوة" موضع التطبيق السليم، والاستنباط الحكيم..، الذي يظهر التفاعل الحي، بين الآيات القرآنية، وقواعد السلوك العامة، بما يحقق التوازن النفسي والاجتماعي للناس.

وبما أن لكل عصر ظروفه ومتطلباته وتحدياته..، التي يجب أن تتماشى معها هذه العملية التعليمية..، كان من "الحكمة" أن نتعامل مع الكتاب بوصفه "آية قرآنية" متجددة العطاء على مر العصور.

فتعالوا نتدبر هذه الآيات التي حملت "الحكمة" للناس، والتي أوحاها الله تعالى إلى رسوله محمد، عليه السلام، وهي الآيات من [22] إلى [38] من سورة الإسراء، والتي تبدأ بحكمة التوحيد الخالص، فيقول الله تعالى:

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً [22]

وإن من الحكمة أن يقيم المسلم حياته وعلاقاته الاجتماعية على قوانين الحكمة بداية بإصلاح العقيدة، وطرق التفكير والمنطق السليم، وملازمة بر الوالدين.

وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً [23] وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً [24] رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً [25]

ومن الحكمة إقامة الروابط الإنسانية، وأعلاها حقوق ذوي القربى، والمساكين وابن السبيل..، على المسلم أن يؤديها دون إفراط أو تفريط، وليس تفضلا من أحد على أحد، فالآمر هو الله تعالى، الذي بيده مفاتيح كل شيء.

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً [26] إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً [27] وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً [28]

وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً [29] إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً [30]

ومن الحكمة ألا يقتل الإنسان أولاده خشية الفقر، وإنما عليه أن يأخذ بأسباب الحياة ويستعين بالله تعالى، ويعمل حسب ظروف بيئته، الاجتماعية والمالية، وعلى إخوانه أن يساعدوه على الخروج من أزمته بسلام.

وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً [31] وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً [32]

إن الذي يقتل طفله خشية الفقر، كالذي يقتل طفله من جريمة الزنا، أو كالذي يضع ماءه في رحم امرأة لا تحل له...، فكلها من أسباب تحلل المجتمعات وتفكك روابطها وانعدام الثقة بين أفرادها.

لذلك حذر الله تعالى، في الآية السابقة، من الاقتراب من الزنا.

ومع حكمة النهي عن قتل الولد خشية الفقر، وقتل النفس الآدمية بفاحشة الزنا تأتي حكمة الحرمة المطلقة للاعتداء على النفس بوجه عام، وأنه ليس لأحد أن يسلبها حريتها في الحياة، إلا بالحق الذي أنزله الله تعالى في كتابه.

وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً [33]

ومن الحكمة رعاية اليتيم وتعهده، وتنمية ماله. كما أن من الحكمة الوفاء بالعهد وتوفية الكيل والميزان، لإقامة الثقة بين الناس في تعاملاتهم.

وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً [34] وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً [35]

ومن الحكمة أن يقيم المسلم شريعته على العلم والحجة والبرهان، فلا مكان في دين الله تعالى للظن أو الوهم أو الخرافة. إنها مسئولية الإنسان في استخدام وسائل الإدراك على الوجه الذي أمره به ربه.

وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [36]

ومن الحكمة ألا ينخدع الإنسان بمظهره، أو بمركزه المالي أو الاجتماعي، وينسى أن قيمته الحقيقة عند ربه في التزامه بشريعته.

وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً [37] كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً [38]

ذلك قبس مما أوحاه الله تعالى إلى رسوله من "الحكمة"، والذي ينطلق من قاعدة التوحيد الخالص لله تعالى، فتدبر:

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً [39] الإسراء

لقد بدأت هذه المجموعة من الآيات بقوله تعالى: "لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً"، وجاءت الخاتمة بقوله تعالى: وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي

جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً"، فهل وقفت على "الحكمة"؟!

حاول أن تجد علاقة الربط، والمناسبة، بين الآية الأخيرة، وما حملته الآيات التي سبقتها من "حكمة"، كمثال للعملية التعليمية التربوية، التي جاءت بها نصوص "الآية القرآنية"، متجددة العطاء إلى يوم الدين.

ويمكننا أن نقول، بإيجاز:

أولا: إن الحكمة هي الفهم الواعي لحقيقة التوحيد الخالص، ولقوانين الحق والعدل التي جاء القرآن الحكيم، وجميع الرسالات السابقة، لتذكير الناس بها..، فالقلب الحكيم يرفض أن يكون لهذا الوجود أكثر من إله.

ثانيا: إن القلب الحكيم يرفض عقوق الوالدين، فمن الحكمة بر الوالدين: "وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً".

ثالثا: إن القلب الحكيم يعلم أن من الحكمة إيتاء الزكاة، ودفع الصدقات، فإن لم يدفع الأغنياء حق الفقراء والمحتاجين اختلت موازين القيم الإنسانية في نفوس البشر وظهر الفساد، بما كسبت أيدي الناس.

رابعا: إن القلب الحكيم يعلم أن الإحصان، وحماية أعراض الناس، وحرمة قتل النفس إلا بالحق، وصيانة مال اليتيم، والعدل في حقوق الناس، والتواضع..، كلها أحكام وضوابط يجب أن تحكم سلوك المسلم وطريقة تفكيره.

خامسا: إن الحكمة عطاء إلهي، وجاءت صفة لأحكام "الآية القرآنية" الحكيمة، التي يستحيل أن تخضع حجيتها لاجتهادات البشر، ومدارسهم في الجرح والتعديل.

إن جماع الحكمة، وموازينها، موجود في ثنايا آيات الذكر الحكيم. إنها دستور الأخلاق الذي حملته "الآية القرآنية" هداية للناس إلى صراط ربهم المستقيم. تدبر ماذا قال لقمان، عليه السلام لابنه وهو يعظه:

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ [12]

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [13] وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ [14]

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [15]

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ [16]

يَا بُنَيَّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ [17]

وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [18] وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ [19] لقمان

هل وقفت على الحكمة المستنبطة من سورة المطففين، والتي تقيم التوازن بين الناس بما يضمن علاج مشكلاتهم المالية والاقتصادية؟!

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ [1] الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ [2] وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [3] أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ [4] لِيَوْمٍ عَظِيمٍ [5] يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [6] المطففين

وهل وقفت على الحكمة المستنبطة من سورة الحجرات، والتي تضع الميزان الذي يضمن السلام النفسي والاجتماعي لشعوب العالم؟!

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ [6]

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ [7] فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [8]

ثم تدبر قول الله تعالى بعدها:

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [9]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [10]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ [11]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ [12]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [13] الحجرات

هذا هو مفهوم "الحكمة" المستنبط من السياق القرآني، فهل يمكن أن نساوي نصوص "الآية القرآنية"، التي حملت "الحكمة"، التي تهدي الناس إلى صراط ربهم المستقيم... بمرويات الفرق والمذاهب المختلفة، التي قامت على مدارس الجرح والتعديل المذهبية؟! لقد وصف الله تعالى كتابه بـ "الحكمة" لما يحمله من شريعة حكيمة، ووصفه بـ "الفرقان" لما يحمله من شريعة تفرق بين الحق والباطل، وبيّن أنهما منزلان من عند الله..، فتدبر:

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً [1] الفرقان

فـ "الفرقان" المنزل، و"الحكمة" المنزلة...، من صفات الكتاب العزيز، وليست نصوصا تشريعية مستقلة عنه!!

ومما شمله النص القرآني الحكيم ما تعلمه الإنسان، عبر "منظومة التواصل المعرفي" من كيفيات أداء العبادات، والمهارات المختلفة، كالزراعة والصناعة.

لقد تعلم الإنسان كيف يصنع لباسه عمليا بالتقليد والمحكاة وليس بنص مكتوب. ونزل النص القرآني يبيّن أن هذه الصناعة منزلة، مع عدم وجود تفصيل لها في القرآن.

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ [26] الأعراف

وجاء القرآن يخبرنا أن الله تعالى علّم داود، عليه السلام، كيف يصنع لباس الحرب.

وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ [80] الأنبياء

وبيّن الله تعالى أن هذه الصناعات من "الجعل" الإلهي، أي يتعلمها الإنسان عن طريق الأخذ بالسنن والآليات المحققة لها، ومنها "التقليد والمحاكاة"، فتدبر.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ [81] النحل

ولا شك أن عملية الإنزال هذه تعني إنزال الخامات التي تحتاج إليها هذه الصناعات كما تعني إلهام الله تعالى الإنسان كيف يصنع هذه الأشياء، وسميت هذه العملية التعليمية إنزالاً.

ولقد أنزل الله تعالى أيضا الحديد:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [25] الحديد

وهذا الميزان المنزل مع الكتاب، هو موازين الحق والعدل، الواجب إقامتها بين الناس..، وليس مصدراً تشريعياً مستقلاً عن الكتاب. وكذلك الحديد المنزل، ليس مصدرا

تشريعيا مستقلا..، وإنما يعني مادته الأولية المخزونة في الأرض، والتي هي مقوم أساس من مقومات الحضارة وتقدمها.

إن من عظيم نعم الله على الناس، أن أوجدهم على هذه الأرض، وقد هيأ لهم كافة أسباب الحياة، وأنزل لهم كل المتطلبات التي تعينهم على مهمة استخلافهم في الأرض وألهمهم كيفية الانتفاع بها، فتدبر:

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ [6] الزمر

كما أنزل الله تعالى النور المبين:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً [174] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً [175] النساء

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [8] التغابن

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [52] الشورى

فهل يمكن أن يكون هذا النور، الذي أنزله الله تعالى على رسوله، وأمر الناس بالتمسك والاعتصام به، هو مرويات الفرق والمذاهب المختلفة، التي يعتبرها علماؤها مصدرا تشريعيا مستقلا عن كتاب الله؟!

إننا إذا تدبرنا الآيات [261-268] التي سبقت قوله تعالى:

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [269] البقرة

استطعنا أن نقف على مزيد من عطاء "الحكمة" المستنبطة من نصوص "الآية القرآنية" التي جعلها الله حجة على الناس إلى يوم الدين.

وإن "الحكمة" تستنبط مما يتلى من الكتاب، وذلك في حلقات العلم، التي يجب أن تقام في بيوت المسلمين، أسوة ببيوت النبي. تدبر قول الله تعالى في سورة الأحزاب:

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً [34]

فقول الله تعالى: "وَاذْكُرْنَ"، أمر بالتذكر والمذاكرة، ثم قوله بعدها: "مَا يُتْلَى" بيان لموضوع التذكر، وأنه متعلق بالآيات المتلوة، وما يستنبط منها من "الحكمة" وخاصة إذا كانت تتلى في مجتمع من النساء، وتتعلق بأحكامهن.

وخلاصة القول: إن "الحكمة" هي أن تضع الشيء في موضعه، حسب السنن الربانية. إن المسلم الرباني يصل إلى درجة من الحكمة تزداد بازدياد ثقافته العلمية والمعرفية، وتفاعله مع واقعه، بما يحقق له ولأمته التوازن النفسي والاجتماعي.

لذلك لا أكون مبالغاً إذا قلت بأن مواضع الحكمة في كتاب الله بعدد آياته.

واليوم، وقد مرت على عصر الرسالة الخاتمة قرون طويلة، من الفرقة والمذهبية والتخاصم بين المسلمين، يستطيع كل إنسان، وفي أي عصر، أن يقيم إسلامه على أساس "الآية القرآنية" المعاصرة له، والتي من خلالها يشهد شهادة علمية أنه "لا إله إلا الله"، وذلك على أساس التفاعل الفطري، بين آليات عمل القلب، وآيات الآفاق والأنفس المبثوثة حوله في هذا الكون..، وأن "محمداً" رسول الله، على أساس ما شهد القرآن له به، شهادة علمية، وليست وراثية..، وهذا ما علمناه عن رسول الله، من كتاب ربنا:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [144] آل عمران

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً [40] الأحزاب

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ [2] محمد

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً [29] الفتح

5. الحج أشهر معلومات

لقد فهم بعض المسلمين من قول الله تعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ" أن مناسك الحج يمكن أن تؤدى في أي وقت من هذه الأشهر، وهناك من فهم أنها يمكن أن تؤدى في أي وقت من أيام السنة..، وهذا نراه فهما غير سليم.

لقد كانت تقاليد الحج شائعة عند العرب، قبل بعثة خاتم النبيين محمد، عليه السلام ولكنها كانت قائمة على الشرك بالله، فبعث الله تعالى رسوله محمدا، ليقيم ملة التوحيد ملة إبراهيم عليه السلام.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ [26]

ومن شريعة ملة التوحيد، ملة إبراهيم، عليه السلام، منسك الحج.

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ [27] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ [28] الحج

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [97] المائدة

ولقد نزل القرآن يبين ويصحح للناس شروط أداء فريضة الحج، فقال تعالى:

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ [197] البقرة

والرفث والفسوق والجدال..، من الأمور المحرمة في أشهر الحج، سواء أكان الناس حجاجا في البيت الحرام، أم كانوا غير حجاج، خارج البيت الحرام، فأشهر الحج أشهر

حرم، محرمة لذاتها.

لقد أراد الله تعالى أن يجعل ثلث العام سلاما بين الناس... فرض ذلك عليهم فرضا فمنذ أن جعل الله تعالى الكعبة بيتا حراما، جعل للحج أشهرا حرما، فحرمة الأشهر الحرم مرتبطة بفريضة الحج.

والأشهر العربية هي: المحرم، صفر، ربيع أول، ربيع الآخر، جمادى الأولى جمادى الآخر، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [36] التوبة

ولقد عرف العرب شهر [ذي القعدة] شهر قعود عن القتال، فهو من الأشهر الحرم وعرفوا شهر [ذي الحجة] شهر الحج، وعرفوا [المحرم] أول الأشهر العربية المحرم فيها القتال، وعرفوا [رجب] شهر عمرة وزيارة.

لقد جعل الله تعالى هناك فترة كافية للإعداد للحج، وهي شهر [ذي القعدة] قبل شهر الحج، وفترة كافية بعده [محرم] للإعداد للانصراف من الحج.

وفي وسط العام شهر [رجب] للعمرة، وبذلك تكون محطات السلام قد وضعت على مدار السنة، أولها، ووسطها وآخرها.

ولقد كان لبعض قبائل العرب حاجات تتعارض مع هذه الأشهر الحرم، فلعب الشيطان بهم، وأوحى إليهم بفكرة تتماشى مع أهوائهم، وهي استحلال هذه الأشهر لخدمة مصالحهم الدنيوية، عن طريق تأخيره في عام، وتقديمه في عام آخر..، المهم المحافظة على وجود أربعة أشهر حرم في العام، أما ما هي هذه الأشهر، وكيف يتلاعبون بها كل عام...، فلم يكن هذا محل اهتمامهم.

ولقد نزل القرآن يبيّن بطلان ما يفعله المشركون، ويصحح ما بدلوه وغيروه، ويبيّن أن حق التحليل والتحريم لله تعالى وحده:

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ [37] التوبة

لقد نزل القرآن يبطل النسيء، وهو التقديم والتأخير، مع الزيادة، في الأشهر الحرم "يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ"، أي ليوافقوا الأربعة أشهر الحرم. وهذا دليل على أن للحج ميقاتا محددا، وسط هذه الأشهر الحرم الأربعة، كان العرب يعلمونه جيدا، خاصة من ظلوا على الملة الحنيفة.

أما قوله تعالى:

بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [1] فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ [2] التوبة

فهل الأربعة أشهر المذكورة في قوله تعالى: "فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُر" هي الأربعة أشهر الحرم، التي كانت معروفة عند العرب، والتي ذكرها الله تعالى في الآية [36] من نفس السورة، والمذكورة سابقا؟!

الحقيقة أن هذه الفترة مهلة للمشركين، الناقضين للعهد، مقدارها أربعة أشهر تبدأ في أي وقت يحدده القائد العسكري، وليس بالضرورة أن يأتي توقيت هذا الإعلان مع بداية الأشهر الحرم المعروفة، من لدن آدم عليه السلام، والمشار إليها في سياق الآية [36].

لذلك جاءت غير معرفة، "أَرْبَعَةَ أَشْهُر"، فلم يقل الله تعالى: "الأشهر الأربعة"، وذلك لبيان أن القتال، بعد هذه المهلة، لا يكون في الأشهر الحرم، وإنما بعد انقضائها، فقال الله تعالى:

فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [5] التوبة

ولبيان كيف أن مناسك الحج، التي حملتها "منظومة التواصل المعرفي" إلينا، هي نفسها التي أقامها رسول الله وصحبه الكرام في عصر الرسالة، نذكر عدة مسائل:

1. أن الأشهر العربية [القمرية] نظام توقيت إلهي منذ أن خلق الله السماوات والأرض وهو أقدم وأضبط نظام للتوقيت عرفته البشرية، وهذا ما بينته الآية [36].

إن قوله تعالى في الآية [36]: " ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ"، ثم قوله بعدها: "فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ"، دليل على أن الأشهر الحرم كانت معلومة بأسمائها عند العرب، وأنها من الدين القيم. وهذا معناه أن من الدين ما يحفظه الله تعالى عبر "منظومة التواصل المعرفي" وإلا فمن أي المصادر المعرفية عرف هؤلاء العرب أسماء هذه الأشهر المعلومات التي فرض الله تعالى فيهن الحج؟!

2. وجود شهر من هذه الأشهر الإثني عشر باسم [ذي الحجة] يدل دلالة منطقية على أن هناك علاقة بين هذا الشهر وأداء مناسك الحج، منذ أن فرض الله تعالى على الناس حج البيت، ومنذ أن رفع إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، القواعد من البيت.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [127] رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [128]

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [129] البقرة

ومنذ أن رفع إبراهيم، عليه السلام، القواعد إلى بعثة رسول الله محمد، والناس يعلمون مناسك الحج، وإن حرف فريق منهم بعضها، أو جعل التوجه فيها لغير الله.

فلقد عرف إبراهيم، عليه السلام، الأيام المعلومات، التي تؤدى فيها مناسك الحج وأداها في الشهر المختص بأعمال الحج، والمسمى بـ [ذي الحجة]، لأنه لا يعقل أن يؤديها في شهر آخر غير الذي سمي باسمه!!

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ [27] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ [28] الحج

لقد أجمل القرآن، في هذا السياق، هذه الأيام المعلومات، ولم يبين أنها معدودة ومتصلة، لأن السياق لا يتحدث عن أعمال الحج..، وإنما يتحدث عن مشروعيته.

أما عندما تحدث السياق عن أعمال الحج، ذكر أنها أيام معدودات، فقال تعالى:

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنْ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [203] البقرة

لقد فرض الله تعالى على إبراهيم، وبنيه عليهم السلام، حج البيت في شهر "ذي الحجة"، وكان من الضروري أن تكون هناك مساحة زمنية للتجهز والإعداد للسفر إلى موطن الحج، لهؤلاء الذين سيأتون من فج عميق. وكذلك مساحة زمنية بعده للعودة وهذا ما ينبغي أن يفهم من قوله تعالى "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ" في هذا السياق:

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ [197] البقرة

ذلك أن هناك أشياء عملية قد حفظ الله تعالى بيانها العملي للناس، وكيفية أدائها على مر العصور، ثم أشارت إليها الرسالات بصورة مجملة. فلقد أرسل الله الرسل إلى أقوام يعلمون هذه الأشياء، ويؤدونها في واقع حياتهم، من لدن آدم عليه السلام وكانت مهمة الرسل إما إقرار ما عليه الناس أو تصحيحه، أو إضافة تشريعات جديدة.

لذلك فنحن نضبط ما وصلنا من هذه المعارف عن عصر الرسالة الخاتمة بما ورد عنها في كتاب الله، ثم جاءت "منظومة التواصل المعرفي" تبينه، من معارف وكيفيات أداء عملية، بصرف النظر عما إذا كان عصر الرسالة هو الحلقة الأولى، أم أنه الحلقة الأخيرة، من حلقات التواصل المعرفي، المبينة لهذه المسألة، عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. ومن الضوابط الواجب أخذها في الاعتبار، نذكر:

أولا: من حيث الزمان

أن قول الله تعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ" لا يمكن أن يفهم منه أن أداء مناسك الحج تستغرق هذه المساحة الزمنية، الأربعة الأشهر كاملة، ذلك أن سياق الآية يتحدث عن فعل يتم في أشهر معلومات، وليس هو ذاته الأشهر المعلومات!!

أن العرب عندما خاطبهم الله بقوله، "وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ" لا شك أنهم كانوا يعلمون، أن هذه الأيام جزء من أشهر الحج، فإذا كان من أشهر الحج شهر يسمى بـ [ذي الحجة] دل ذلك على أن هذه الأيام المعلومات من هذا الشهر.

فإذا توارثت الأجيال هذه الأيام المعلومات، من لدن إبراهيم عليه السلام، وإلى يومنا هذا، على أنها العشر الأُول من ذي الحجة، عبر "منظومة التواصل المعرفي" إذن فعلى أي أساس منطقي نخالفها؟!

إن قول الله تعالى عن الأشهر إنها [معلومات] وعن الأيام إنها [معلومات] يدل دلالة قطعية على أن هذه الأشهر، وهذه الأيام، كانت معلومة للعرب، عن طريق هذه المنظومة المعرفية، فحاشا لله أن يخاطب الناس أو يأمرهم بفعل شيء، لا علم لهم به.

ثم يأتي القرآن بإشارة تؤكد ما سبق بيانه، وذلك في سياق آية جاءت قبل آية "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ" مباشرة، حيث يقول الله تعالى:

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [196] البقرة

إن سياق الآية يتحدث عن هذه المساحة الزمنية التي جاءت الآية التالية بوصفها بأشهر الحج، "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ"، والتي تبدأ بخروج المسلم من بيته قاصدا بيت الله الحرام، مرورا بزمن السفر، ووصولا إلى مكان الحج، انتظارا لميقات مناسكه.

تدبر قوله تعالى: "وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ"، ثم ما جاء بعده من بيان لأحكام ما قد

يمنع من الحج، أو العمرة: "فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ"، ثم قوله تعالى بعد ذلك: "فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ".

إذن فالآية تتحدث عن مسائل قد تحول دون وصول الحاج إلى البيت الحرام لأداء مناسك الحج، في وقت محدد لها، لأنه لو كان زمن أداء هذه المناسك يستغرق الأربعة أشهر كلها ما كان لتقديم الهدي نتيجة "الإحصار" معنى، ولا لقوله تعالى بعدها" "وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ"!!

أيضا نفهم من السياق أن من محظورات الإحرام حلق الرأس، إذن:

فقد يخرج الحاج من بيته محرما بالحج، في أي وقت من أشهر الحج، وقبل المنسك الرئيس، وهو الوقوف بعرفة، كما سنبينه، وفي هذه الحال [أي إذا أحرم من بيته] يحرم عليه أن يحلق شعره، حتى يبلغ الهدي محله.

لذلك كان شهر [ذي القعدة] السابق لشهر [ذي الحجة] من أشهر الحج، لأن هذا الحاج قد أحرم فعلا بالحج وألزم نفسه محظورات الإحرام.

فإذا زالت الموانع، من إحصار أو مرض..، وأمن الحاج ووصل إلى البيت الحرام قبل وقت الحج، وأراد أن يتمتع بالعمرة [أي يعتمر ثم يتحلل من إحرامه] ويقيم بمكة حلالا إلى وقت الحج..، فعليه في هذه الحالة هدي لقوله تعالى، في الآية السابقة: "فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ".

ذلك لأن الحاج في هذه الحال، يكون متمتعا بمحظورات الإحرام، فيما بين تحلله من العمرة، إلى وقت إحرامه بالحج، لقوله تعالى: "إِلَى الْحَجِّ".

وهذا يعني وجود زمن بين العمرة والحج، لا يكون فيه المعتمر محرما، وهو زمن الإحلال. إذن فما الذي ينتظره الحاج في هذه الفترة، ولماذا لا يذهب مباشرة بعد أداء العمرة إلى عرفات؟!

إن التمتع يتعلق حكمه بفعل العمرة والحج معا، في أشهر الحج، وقوله تعالى: "إِلَى الْحَجِّ"، أي متربصا إلى وقت الحج، الذي هو أيام الحج المعلومات، التي يجب أن ينتظر الحجيج قدومها.

ولو أن أعمال الحج كان يمكن أن تؤدى في أي وقت من أشهره ما كان لقول الله تعالى "إِلَى الْحَجِّ" معنى، وما جعل الله تعالى على المتمتع هديا لانتظاره [متمتعا] إلى وقت الحج...، فانتظاره هذا يعني أن أعمال الحج لها وقت محدد لا يمكن تقديمها أو تأخيرها عنه، إلا في حدود ما نص القرآن عليه، كقوله تعالى:

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنْ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [203] البقرة

فقوله تعالى: "فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ"، ثم قوله تعالى: "وَمَنْ تَأَخَّرَ"، يدل على أن هناك فسحة من الوقت، في زمن قد حدد سلفا لهذه المناسك، وهو الأيام المعدودات.

ثانيا: من حيث المكان

لقد خاطب القرآن العرب عن مناسك يعرفون مواقعها الجغرافية جيدا، وإذا كان هناك فريق لم يلتزم بهذه الأماكن، في وقت من الأوقات، فإن هناك فريقا آخر ظل ملتزما بقدسية هذه الأماكن، ويعلمها جيدا. فتدبر:

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ [158] البقرة

فقوله تعالى: "فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا" دليل على أن المخاطبين بهذه الآيات يعلمون من قبل، أن هناك مكانا يسمى بـ [الصفا]، ومكانا يسمى بـ [المروة]، وأن السعي بينهما من مناسك الحج، وعليهم الآن أن يصححوا التوجه بهذا السعي إلى الله تعالى وحده لا شريك له، لأن هذه المناسك من شعائر الله.

ومن هذه الأماكن المقدسة التي عرفها العرب أيضا، قبل بعثة الرسول الخاتم محمد عليه السلام، "جبل عرفات".

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الضَّالِّينَ [198] ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [199] فَإِذَا قَضَيْتُمْ

مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ [200] البقرة

تدبر قوله تعالى مخاطبا المسلمين: "ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ"، والذي يعني أن يفيض الحجيج من مكان أفاض جنس الناس منه قديما، ويفيضون منه حديثا وهو [عرفة]، لقول الله تعالى قبلها "فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ".

ثالثا: مفهوم الإحرام بالحج

الإحرام بالحج حالة ونية يكون عليها الحاج تلزمه الكف عن فعل ما حرمه الله تعالى حال كونه محرما، ونفهم ذلك من قول الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ [1]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [2] المائدة

إن قوله تعالى: "غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ"، ثم قوله تعالى في الآية [2] بعدها: "وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا"، دليل على أن من ألزم نفسه الحج بالإحرام في أي وقت من هذه الأشهر المعلومات، وقبل المنسك الرئيس للحج، وهو الوقوف بعرفة، فعليه أن يكف عن محظورات هذا الإحرام، ومنها: الرفث والفسوق والجدال، وصيد البر:

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [96] المائدة

فالإحرام بالحج حالة يكون عليها الحاج، دالة على أنه قد بدأ مناسك الحج.

والبيت والبلد الحرام مكان محدد جغرافيا يحرم فيه [في جميع الأوقات] الصيد ويأمن فيه الناس على أنفسهم.

والشهر الحرام مساحة زمنية يحرم فيها القتال بين الناس.

وهذا دليل على بطلان دعوى جواز أداء مناسك الحج في أي وقت من أشهر الحج لأن أعمال الحج في أيام معلومات من شهر ذي الحجة والإحرام بالحج من الحقائق العملية الموروثة عبر منظومة التواصل المعرفي العملي التي عرفها العرب من لدن إبراهيم عليه السلام.

رابعا: الوقوف بعرفة

هناك آيتان يفهم منهما أن رسول الله محمد، عليه السلام، قد أعلن للناس جميعا مسلمهم وكافرهم، أن عهد المشركين الناقضين قد برئ منه الله ورسوله، وكان ذلك وهم مجتمعون في صعيد واحد، فتدبر:

وَأَذَانٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [3] التوبة

الأمر الذي لا يمكن تحققه وقت الحج إلا عند الوقوف بعرفة، حيث يجتمع الحجيج في مكان واحد يمكن إعلام الناس جميعا في صعيد واحد، بأي خبر أو موعظة.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الضَّالِّينَ [198] البقرة

إن الحقائق العملية التي تنقلها لنا "منظومة التواصل المعرفي" نقبلها إذا جاء القرآن يؤيدها. والقرآن الكريم جاء بأعمال الحج من حيث مكانه وزمانه تفصيلا: الطواف بالبيت الحرام، السعي بين الصفا والمروة، الوقوف بعرفات والإفاضة منها إلى المزدلفة [المشعر الحرام]، التحلل وذبح الذبائح.

وإن المتدبر لكتاب الله يعلم أن ما أتى الله تعالى بتفاصيله في كتابه، هو ما أراد تعالى أن يتعلمه المسلمون من خلال كتاب حكيم، محفوظ بحفظ الله تعالى له، وأن ما أجمله سبحانه في هذا الكتاب من أحكام، قد نقلته لنا هذه المنظومة المعرفية.

ففي مسائل العبادات [كالصلاة مثلا] نجد أن الله تعالى لم ينص بالكلمة والحرف على كيفية أداء بعينها، لأنه لو فعل سبحانه لكان في ذلك مشقة وعسر في الأداء يجعل المسلم في حرج من محاولة ضبطه لهذه الكيفية، كما أنزلها الله، بل وقد ينشغل بذلك دون الاهتمام بجوهر العبادة.

لذلك جعل الله تعالى في تقليد ومحاكاة هذه المسائل الموروثة عبر "منظومة التواصل المعرفي" سعة ورحمة في الأداء. لقد صلى رسول الله، وحج..، وقلده جيل الصحابة الكرام، والتابعون، والمسلمون جميعا، إلى يومنا هذا، وإلى قيام الساعة.

لقد توارث المسلمون كيفيات الأداء العملي، بالتقليد والمحاكاة، وليس بالتعلم من نصوص مدوّنة في الكتب، شهد أصحابها أنها دوّنت بعد قرن ونصف قرن من وفاة الرسول، عليه السلام.

إن تقليد الأبناء لميراث الآباء في مجالات العلوم المختلفة، يختلف جذريا عن تقليدهم في مجال الدين [ملة وشريعة]. فإذا قلد الأبناء آباءهم فيما ورثوه من معارف باطلة فإنهم سيجدون أنفسهم في يوم من الأيام أمام حقائق الكون العلمية الشامخة فيضطرون إلى نبذ هذه المعارف الباطلة والتسليم والإيمان بالحقائق العلمية.

أما في مسائل الملة والشريعة الإلهية فلا مجال فيها، على الإطلاق، للتقليد واتباع السلف، إلا إذا أقام المقلد الدليل والبرهان على أن هذا التقليد هو الحق الذي أمر الله باتباعه.

لذلك جاء القرآن يقيم الميزان الحق الذي يقبل على أساسه المسلمون ما حملته لهم "منظومة التواصل المعرفي" من معارف نظرية كانت أو عملية.

فإذا نظر المسلمون بعين البصيرة إلى ما حملته لهم هذه المنظومة المعرفية من تراث الفرق والمذاهب المختلفة، حول أصول الدين وفروعه، لوقفوا على حقيقة الفرق بين "الآية" و"الرواية"، بين الدين الإلهي، والتراث البشري.

لقد بيّنت فيما سبق كيف تستقطع الآيات من سياقاتها، لتوظيفها لخدمة التوجهات المذهبية المختلفة، أو لخدمة من يتصورون أن الدعوة إلى الاكفتاء بالقرآن تعني التعامل مع النص القرآني دون مراعاة لأدوات فهم القرآن التي أشار إليها القرآن نفسه، والتي بيناها في كتابنا الأول: "المدخل الفطري إلى التوحيد".

إن المسلمين اليوم، وعلى مر العصور، تعلموا كيفية الصلاة، وأداء مناسك الحج عمليا بالتقليد والمحاكاة، عبر "منظومة التواصل المعرفي"، حيث تتفاعل الآيات القرآنية مع المعارف الحقة التي حملتها هذه المنظومة، ليرث المسلمون على مر العصور هذه الكيفيات، على وجهها الصحيح، بعيدا عن مرويات الفرق والمذاهب المختلفة، وعن السند الروائي، وما حمله من فقه التخاصم.

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

عندما كتبت كتابي "السنة النبوية حقيقة قرآنية– قبل ظهور الفرق والمذاهب" تحدث معي بعض من لهم شأن في مجال الدعوة والفكر..، معترضين على كثرة الآيات القرآنية الموجودة فيه، متسائلين عن الحكمة من ذلك.

والحقيقة أن الحكمة تكمن في منهج وأهداف هذه السلسلة من الدراسات، التي تسعى إلى ربط القارئ بآيات الذكر الحكيم، وحثه على تدبرها، للوقوف على عطاءاتها المعاصرة.

فلقد صرفت فتنة [الآبائية] كثيرا من المسلمين عن كتاب ربهم، آية رسولهم القرآنية التي لا يكمل إسلام المرء إلا بالإيمان بفاعليتها المتجددة على مر العصور.

لقد تربى المسلمون على الموروث الديني لمذاهبهم المختلفة، الذي حجب قلوبهم عن نور هذه "الآية"، وهدايتها إلى صراط ربهم المستقيم..، فلم تعد تكفيهم قراءة الآيات القرآنية وحدها للوقوف على أصول الدين، ملة وشريعة، من غير تفسير أئمة مذاهبهم المختلفة، ومرويات محدثيهم المتناقضة، وفتاوى فقهائهم المتخاصمة.

لقد ظل الفكر الإسلامي قرونا من الزمان على هذه الحال من التفرق والتخاصم... يدرس علماؤه، آيات الذكر الحكيم، من خلال مرجعياتهم المذهبية السلفية، والعالم من حولهم في أشد الحاجة إلى نور وعطاء "الآية القرآنية"، التي يحملونها دون تفعيل لها.

لذلك لم يكن مستغربا، أن يعتقد فريق من الناس، أن الدار الآخرة، وإن كانت دار جزاء وحساب..، فهي أيضا دار شفاعة، وأن رسول الله سيشفع في الآخرة، لمن شاء من أتباعه، ويأخذهم من النار، ويدخلهم الجنة..، وأن أولياء الله سيشفعون أيضا لمن شاءوا ويدخلونهم الجنة معهم**!!**

كما لم يكن بمستغرب، أن يجعل فريق من الناس، أصول الإيمان محصورة في:

الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح..، أما رسولية محمد، وأن هذا القرآن من عند الله، وما يتبع ذلك من أحكام الشريعة القرآنية..، فليست من المسائل التي يكفر من أجلها المرء، وإن كانت من حقائق الدين الإسلامي**!!**

وهؤلاء يؤمنون أن "أهل الكتاب" ملتزمون بهذه الأصول الثلاثة....، وعلى هذا فلا خوف عليهم، فهم داخلون الجنة، مع كفرهم برسول الله الخاتم محمد وبرسالته.

الشفاعة في الدنيا والآخرة

الشفاعة سنة اجتماعية جرت عليها أعراف الناس على مر العصور، سواء أكانت شفاعة حسنة، من جلب منفعة أو دفع ضر، يكون للشافع ثوابها..، أم شفاعة سيئة من جلب ضر أو دفع منفعة، يحمل الشافع وزرها.

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً [85] النساء

إن سياق الآية لا يتحدث عن حسنات تضاعف للإنسان، أو سيئات يجزى بمثلها.. وإنما عن طبيعة المعاملات بين الناس، وأن الشفاعة الحسنة تحق الحق، والشفاعة السيئة تسقطه.

كما تبين الآية أن القائم بالشفاعة الحسنة، له نصيب في الجزاء والثواب، الذي ستسفر عنه هذه الشفاعة. أما القائم بالشفاعة السيئة فحمله ثقيل وشاق، لأنه بشفاعته هذه يُسقط الحقوق، ويقوي الباطل..، فعقابه وعذابه شديد.

ولقد توسعت الأمم، على مر العصور، في معنى هذه الشفاعة، ونقلوها من دائرة الشفاعة الخاصة بالمعاملات في الدنيا، إلى دائرة الحساب في الآخرة، فنزل القرآن يرد على هذا التصور الخاطئ لطبيعة ميزان الحساب في الآخرة، وأنه يختلف عن موازين الدنيا، الأمر الذي يجب أن نعلمه جيدا عند تدبر الآيات التي يظن بعض الناس أنها دليل على وجود [وسطاء] يشفعون للمذنبين يوم القيامة.

واللافت للنظر، أن أول بيان خاطب به القرآن المؤمنين، عن موضوع الشفاعة جاء يحذرهم من اتباع هذه العقيدة الباطلة، التي كانت منتشرة في عصر الرسالة ويصحح لهم فهمهم للشفاعة، فتدبر:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ [254] البقرة

والسؤال: إن هذه الآية المحكمة، جاءت تنفي الشفاعة مطلقا، يوم القيامة، فلماذا جاءت تخاطب المؤمنين، أتباع رسول الله محمد، عليه السلام؟!

هل كانوا يؤمنون بوجود شفعاء في الآخرة، فنزل القرآن يحذرهم من هذا الفهم الخاطئ؟!

الحقيقة أن الآية جاءت تصحح المفاهيم، وتضع الحدود الإيمانية، التي يجب ألا يتعداها المؤمنون، إلى يوم الدين.

إن المتدبر لسياق الآيات الذي وردت فيه هذه الآية، ما قبلها وما بعدها، سيقف بنفسه على المعنى الحقيق للشفاعة في القرآن الحكيم.

لقد جاءت الآيات قبلها، ومن شاء فليتدبر السورة من أولها، جاءت في مجملها ببيان أصول الإيمان، ودور الشيطان في صد الناس عن العمل بها، ومدى تمسك جميع الأنبياء، من لدن إبراهيم عليه السلام، بالملة الحنيفية، وتحدثت عن قبلة المسلمين، وعن الصلاة، والقصاص، والصيام، والحج، والإنفاق في سبيل الله، وعن أحكام النساء..، ثم تدبر ماذا قال الله تعالى بعدها:

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ [252]

إن السياق القرآني يتحدث عن أحكام شريعة إلهية واجب اتباعها والعمل بها، وأن من أتباع الرسل من اعتادوا تحريف رسالات الله بعد وفاة الرسل، فجاء القرآن يحذر أتباع الرسول الخاتم من الوقوع فيما وقعوا فيه، بعد أن جاءتهم البينات، فتدبر:

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ [253] البقرة

ثم بعد هذا البيان الواضح والمحكم، وجه الله تعالى الخطاب للمؤمنين، فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ [254] البقرة

إن السياق الذي يتحدث عن أحكام الشريعة، "أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ"، جاء يربط العمل

بهذه الأحكام..، بمنطق الخلة، والشفاعة.

إن كل هذه المسائل تتعلق بأعمال الوساطة في الدنيا، وقد أكد ذلك ببيان عدم وجود هؤلاء الوسطاء، البيع، والصداقة، والشفاعة..، في الآخرة، إذن فكيف يستدرك المرء ما فاته في الدنيا يوم الحساب؟!

إن الشفاعة في الآخرة، ثمرة أعمال الإنسان في الدنيا، ومدى التزامه بشريعة ربه ومن هذه الشريعة ما جاءت سورة البقرة ببيانه..، فالإنسان مسئول شخصيا عن هذه الشفاعة، ولا تأتي له من آخرين..، إلا إذا نص الله تعالى عليهم صراحة في هذا القرآن الحكيم.

لقد جاء السياق القرآني يربط مفهوم الشفاعة بعمل الإنسان في الدنيا، ويبين أن عمله هو "الشفيع" له يوم القيامة، يبين أن عدم الالتزام بأحكام الشريعة يؤدي إلى ظلم النفس وإلى الكفر، فكان من الضروري أن يتضمن إبطال زعم الكافرين وجود شفعاء لهم في الآخرة، "وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ"!!

ويؤكد ذلك أنه عندما تكرر هذا المعنى في سياق آخر، دون الإشارة إلى مسألة الكفر، خلا السياق من ذكر مسألة الشفاعة، فتدبر:

قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ [31] إبراهيم

وهذا أيضا خطاب للمؤمنين، يحذرهم من اتباع السبل التي سلكها من ضلوا من أتباع الرسل السابقين.

فإذا تدبرنا سياق الآيات التي تلت الآية [254] التي جاءت تنفي الشفاعة في الآخرة بصورة مطلقة، وجدنا أن أول آية جاءت مباشرة بعدها هي قول الله تعالى:

اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [255] البقرة

فهل تناقض القرآن، فجاء قبلها بنفي الشفاعة، ثم أثبتها هنا، مشروطة بإذن الله تعالى؟! الحقيقة أن القرآن لم يتناقض، وإنما يحتاج إلى متدبر، "مدّكر".

وإن المتدبر لسياق الآيات، التي تلت الآية [ ]، يلاحظ أن سياق الحديث عن الإنفاق لم ينقطع من الآية [ ] وحتى الآية [ ]، ثم جاء بعده الحديث عن الربا وتحريمه. إذن فنحن لم نخرج عن حدود الشريعة واجبة الاتباع في الدنيا، وعن بيان أن التمسك بها والعمل بمقتضاها هو "الشفيع" الوحيد للإنسان في الآخرة.

فلماذا اشترط الله أن يحمل الشفيع إذن الله تعالى: "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ"..، وهل هذا يعني أن هناك شفعاء في الآخرة، لا يشفعون إلا من بعد أن يأذن الله ويرضى؟!

علينا أن نعلم ما هو "إذن الله تعالى"، حسب وروده في السياق القرآني، وهل جاء بمعنى "الإذن" "والسماح"..، الذي تعارف عليه الناس، أم بغير ذلك؟!

إن "إذن الله تعالى"، هو مشيئته التي لا تخرج عنها هذه المنظومة الكونية، بكل ما فيها، ومن فيها، فكل شيء في هذا الكون، لا يكون، ولا يعمل...، إلا بإذن الله تعالى.

فالشريعة الإلهية لا تنزل على الرسل إلا بإذن الله تعالى:

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [97] البقرة

وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ [78] غافر

والإنسان لا يؤمن إلا بإذن الله تعالى، تدبر قوله تعالى في سورة يونس:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ [100]

لقد بين السياق القرآني أن اتباع المسلم لشريعة ربه، وتمسكه بالعمل بأحكامها... هو في حقيقة الأمر عمل يتقرب به المؤمن إلى ربه، ليشفع له..، إذا أذن الله بذلك.

إن كل الأعمال الصالحة، التي يقوم بها الناس، لا تكون شفيعا لهم يوم القيامة، إن لم تكن قد قُدمت في الدنيا، بشروطها التي بينتها الآيات المتعلقة بها.

فقوله تعالى: "مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ"، والذي جاء في سياق الحديث عن أحكام الشريعة الإلهية، جاء ردا على مدعي الشفاعة، الذين ينتظرونها في الآخرة، دون أن يقيموا شروطها التي أذن الله تعالى بها، في الدنيا.

إذن فالقضية ليست في وجود شفاعة من عدمه، وإنما في من الذي يملك إذن الله تعالى بالشفاعة!!

ونلاحظ أن معظم الآيات التي أشارت إلى هذا الإذن جاء سياقها يتحدث عن الأمر بالتوحيد، وبيان فاعلية أسماء الله الحسنى، ووجوب الالتزام بشريعة الله..، ردا على المشركين الذين يزعمون أن "الشفاعة" بمعناها الدنيوي، يمكن أن تعفيهم من كل هذه الالتزامات.

ومفتاح هذه القضية، الذي به نفهم باقي الآيات المماثلة، عند تدبر قوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [3] يونس

فقوله تعالى: "مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ"، خبر جاء في سياق بيان فاعلية أسماء الله الحسنى، وليس دليلا على أن الله تعالى سيأذن بهذه الشفاعة، فهذا يحتاج إلى نص آخر قطعي الدلالة يثبت حدوثها يوم القيامة فعلا!!

إن إذن الله تعالى ليس كإذن البشر. إن إذن الله تعالى هو أمره، وشريعته..، وما تحمله من قواعد وموازين تحكم وتضبط مسألة الجزاء في الآخرة.

إن كل الآيات التي ورد في سياقاتها مسألة الإذن هذه يجب أن تفهم في إطار الآيات المحكمات السابق بيانها. فعندما يقول الله تعالى:

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً [85] وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً [86] لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً [87] مريم

نفهم أن الاستثناء هنا "إِلاَّ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً" لا علاقة له بأحوال المتقين

أو المجرمين في الآخرة، لأن الآخرة ليست محل اتخاذ عهود.

إن اتخاذ العهود لا يكون إلا في الدنيا

لذلك رد القرآن على هؤلاء الذين يزعمون تغير الجزاء في الآخرة، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة، فقال تعالى:

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [80] البقرة

تدبر قوله تعالى: "أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ"، وعلاقة كلمة [العهد] هنا بالعهد الذي ورد في آية سورة مريم: "لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً".

إن مسألة الإذن أو العهد، وغيرهما من الاستثناءات التي وردت في سياق الآيات التي تحدثت عن الشفاعة، جاءت على سبيل الاستنكار، ردا على اعتقاد المشركين الذي كان سائدا بين الناس وقت نزول القرآن بإمكانية مغفرة الذنوب، والنجاة في الآخرة بشفاعة الشافعين، من آلهة أو ملائكة أو أنبياء.

إن استخدام كلمة [يملكون] في هذا السياق هو استخدام محكم يدل على معنى الشفاعة الحقيقي المراد بيانه، وهو ما يملكه الإنسان في الدنيا من أعمال تشفع له في الآخرة. وهؤلاء المجرمون لا يملكون هذه الأعمال الصالحة أصلا، ولم يتخذوا عند الرحمن عهدا أصلا..، اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا.

وفي هذا السياق يقول الله تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ [26] لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [27] يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ [28] الأنبياء

إن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ولا "يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى"، أي رضي الله تعالى عنه، فهل من هؤلاء من "قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً"؟!

ولا يصح القول بمفهوم المخالفة هنا، أي القول بأن هذا الاستثناء دليل على وجود

شفاعة للملائكة، [يوم القيامة]، بشرط أن يرضى الله عنهم..، لأن هذا يحتاج إلى دليل آخر قطعي الدلالة، كما يعرف ذلك أهل العلم، وذلك لشبهة أن يكون المقصود بهذا الاستثناء هو إنكار أن يحدث ذلك أصلا، فتكون الدلالة هنا ظنية.

ومثل ذلك قوله تعالى:

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ [22] وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [23] سبأ

إن القرآن ينفي أن يكون للشفعاء دور في محو ذنوب العباد وتكفير سيئاتهم يوم القيامة ويبين معنى [الإذن الإلهي] الذي جاءت به سياقات الآيات الأخرى.

إنه في يوم القيامة يستولي القلق على من يؤمنون بهذه الشفاعة المزعومة، التي اعتادوها في الدنيا، وينتظرون الذين سيأذن الله تعالى لهم بها. وتستمر حالة الفزع والاضطراب هذه، إلى أن تتبين الحقيقة:

ويسأل السائلون: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟!

فتأتي الإجابة: "قَالُوا الْحَقَّ"، فما هو هذا الحق؟!

ولقد بين الله هذا الحق، النافي تماما لاحتمال وجود هذه الشفاعة في الآخرة بقوله:

وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [85] وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [86] وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ [87] الزخرف

إن هذا الحق المشهود، هو سنة الله في الحساب والثواب والعقاب، في الدنيا والآخرة والتي لا يمكن أن تتبدل بأي حالة من الأحوال، مجاملة لملك أو لرسول أو لأحد من الصالحين.

إن الحق المشهود هو موازين الحق والعدل المطلق، لذلك فعندما ينفي الله تعالى

الشفاعة نفيا مطلقا، ثم يثبتها بشرط الإذن والرضا، هذا لا يعني أنه سبحانه بدل قوله حاشاه وتنزه عن ذلك، وإنما يعني أنه "عز وجل" يقيم الحجة يوم القيامة أمام الأشهاد على الذين ظنوا أن شفاعة الدنيا، التي اعتادوا عليها...، يمكن أن تنالهم في الآخرة بغير متطلباتها، كالتوحيد، والتوبة، والاستغفار، والعمل الصالح.

إن الشفاعة لا تنفع أحدا يوم القيامة إلا إذا حملها الناس في الدنيا فوجدوا ثمارها في ميزان حسناتهم في الآخرة بعد أن يأذن الله ويرضى فلا يخافون ظلما ولا هضما.

أما من حمل ظلما في الدنيا، وجاء يوم القيامة يحمله..، فمن أين ستأتي له الشفاعة في الآخرة؟! فتدبر:

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِي لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتْ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً [108] يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً [109]

تدبر قول الله تعالى: "إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً"، ثم بيان الله تعالى بعدها أن هذا الإذن قائم على علم الله المطلق، الذي لا يحتاج لوسيط يذكره بصلاح عبد أو بأحقيته في رحمته يوم القيامة!! فتدبر

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [110] وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً [111]

ولا ظلم يوم القيامة، فقد وضعت الموازين بالحق، فتدبر:

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً [112]

لا ظلم يوم القيامة، فلقد بلغت الرسل رسالات ربهم، وعلى أساس التزام المرء بما جاءت به، سينال الجزاء العادل في الآخرة، فتدبر:

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنْ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً [113] طه

فأية شفاعة هذه التي يمكن أن تخترق منظومة ميزان الحق والعدل الإلهي، في الدنيا

والآخرة؟!

ويمكننا تصنيف هؤلاء الذين ظنوا أن الآخرة محل شفاعة ووساطة..، على النحو التالي:

أولا: فريق زعم أن شركاءهم، بشرا كانوا أو أصناما، سيشفعون لهم يوم القيامة، فرد الله تعالى عليهم زعمهم هذا بقوله:

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ [94] الأنعام

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [18] يونس

ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنقِذُونِ [23] يس

ثانيا: فريق كان يخوض مع الخائضين، ثم جاء يطلب الشفاعة في الآخرة.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [53] الأعراف

وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ [99] فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ [100] وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [101] فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ [102] الشعراء

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ [43] وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ [44] وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ [45] وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ [46] حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ [47] فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [48] المدثر

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ [18] غافر

ثالثا: فريق زعم أن سلالتهم المفضلة على سائر البشر، ستكون شافعة لهم في الآخرة، وهؤلاء رد الله تعالى عليهم بقوله:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [47] وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ [48] البقرة

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [122] وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ [123]البقرة

وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [18] المائدة

ونلاحظ أن هؤلاء قد ورثوا تصورات ومفاهيم خاطئة عن طبيعة ميزان الحساب في الآخرة، فرد الله تعالى عليهم بقوله:

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [80] البقرة

ثم بين الله تعالى طبيعة ميزان الحساب في الآخرة، فقال تعالى بعدها:

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [81] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [82]

رابعا: فريق زعم أن الملائكة والنبيين سيشفعون لهم في الآخرة، فنفى الله تعالى هذا الزعم، وقال تعالى:

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ [40] قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [41] فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ [42] سبأ

وفي هذا السياق، خاطب الله رسوله محمدا، عليه السلام، فقال تعالى:

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ [19] الزمر

قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً [21] قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنْ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً [22] إِلاَّ بَلاغاً مِنْ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً [23] الجن

خامسا: فريق فهم من جملة "من دون الله"، في الآيات التالية، وجود الشفاعة في الآخرة:

وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [51] الأنعام

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [70] الأنعام

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ [4] السجدة

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ [43] الزمر

ولقد رد الله تعالى على هذا الفريق، وعلى هذا التوجه الفكري القائم بين المسلمين حتى اليوم، بقول فصل، يبين أنه مع إيماننا بعلم الله المطلق، وأنه يستحيل أن يتم شيء في هذا الوجود إلا بإذنه ورضاه، فإن هذه المسألة الإيمانية ليست هي موضوعنا فموضوعنا يتعلق بمسألة وجود وسطاء يشفعون للناس عند الله في الآخرة وليس الإيمان بأن الله تعالى وحده هو الذي يملك الشفاعة في الدنيا والآخرة، هذه الحقيقة التي بينها الله بقوله بعدها:

قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [44] الزمر

وبقوله تعالى:

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ [17] ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ [18] يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ [19] الانفطار

إن الله تعالى وحده هو مالك يوم الدين، يوم الحساب، بيده الأمر كله، فإن شاء أدخل الناس جميعا النار، وإن شاء أدخلهم الجنة بشفاعته.

ولكننا أمام نصوص شريعة أمر الله سبحانه باتباعها، وعلينا أن نفهم دلالات ألفاظها، حتى نعمل بها على الوجه الصحيح. فكما قال الله تعالى أن "لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً"، قال أيضا أن "لله الْعِزَّةُ جَمِيعاً"، وذلك لبيان أن كل تقول على الله بغير علم تعد على إذن الله تعالى، فقال تعالى:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ [10] فاطر

إن العمل الصالح، الذي يرفعه الله تعالى، "وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ"، هو "الشفيع" الذي لن يشفع لصاحبه إلا بعد أن يأذن الله تعالى ويرضى.

وأيضا، كما أن الأعمال الصالحة هي الشافعة لأصحابها، وسيجدونها في ميزان حسناتهم يوم القيامة، كذلك دعاء المؤمنين واستغفارهم لإخوانهم، بعد أن يأذن الله تعالى ويرضى، وهذا نص الله تعالى عليه صراحة:

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً [74] أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً [75] الفرقان

وإن من الشفاعة الإلهية، التي نص الله تعالى عليها صراحة، أن يبدل الله سيئات العاصي حسنات، بعد توبة العبد، وعمله الصالح، فتدبر:

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً [68]

يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً [69]

إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً [70] الفرقان

إن مسألة محو السيئات، وتكفير ذنوب أهل الكبائر، مجالها الحياة الدنيا، وتأتي في إطار فاعلية أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وعلى رأسها صفة الرحمة، وأرى أن هذه هي الشفاعة الإلهية التي ذكرتها الآية، فتدبر.

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [54] الأنعام

ومع هذه الرحمة الإلهية، فإن الله تعالى وضع لنيل شفاعته شروطا، فقال:

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [17] وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً [18] النساء

انظر كيف تساوى الذين لم يتوبوا من المعاصي إلا عند سكرات الموت، بالذين ماتوا على الكفر!! وهذا دليل على أن التوبة لن تقبل في حال علم التائب أنه قد دخل أو سيدخل سكرات الموت. لذلك بين الله للمؤمنين، في سياق التحذير من أكل أموال الناس بالباطل، أن اجتناب الكبائر هو ضمانة تكفير السيئات، بعد الإيمان، وقبول التوبة في الآخرة. تدبر قوله تعالى في سورة النساء:

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً [31]

والحقيقة أن الآيات التي تحدثت عن رحمة الله ومغفرته وشفاعته كثيرة، فأكتفي بهذا القدر.

ولقد عبد المشركون الملائكة، واتخذوهم شفعاء عند الله، بدعوى أنهم هكذا وجدوا آباءهم يفعلون، فنزلت الآيات تصحح هذه العقائد الباطلة:

وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [19] وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ [20]

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ [21] بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ [22] الزخرف

وحتى الملائكة، الذين اعتاد المشركون اتخاذهم في الدنيا شركاء وشفعاء، حسب زعمهم، يتبرءون من هذه الشفاعة يوم القيامة، ويردون الأمر كله لمشيئة الله تعالى وإذنه. فتدبر:

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [26] النجم

إن شفاعة الملائكة، المأذون لهم بها، هي التي نص عليها القرآن صراحة..، والتي بينت معنى "إذن الله تعالى" في الآية السابقة، والتي لا مجال لها إلا في الحياة الدنيا... وهي استغفارهم للذين آمنوا، الأمر الذي حُرم منه الكافرون والمشركون، فتدبر:

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ [7]

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [8] وَقِهِمْ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [9] غافر

تدبر دعاء حملة العرش: "فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ"، والذي يبين ما سبق بيانه، من أن إذن الله تعالى بقبول شفاعة أعمال المؤمنين، يقوم على شروط، على رأسها التوبة واتباع سبيل الله وصراطه المستقيم.

أليس هذا الدعاء، صورة من صور الشفاعة المأذون للملائكة بها في الدنيا؟!

ومما يؤكد ذلك، قوله تعالى:

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [5] وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [6] الشورى

كما يؤكد ذلك أيضا قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [30]

نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ [31] نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ [32] فصلت

فهل نال المؤمنون شفاعة الملائكة، المتمثلة في الاستغفار، والدعاء لهم في الدنيا بعد أن أدوا ما عليهم تجاه شريعة ربهم..، هل نالوا هذه النزل، "نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ" بغير إذن من الله تعالى؟!

وقد يسأل سائل:

إذا كان الأمر كذلك، وأن الشفاعة، التي يأذن بها الله تعالى، هي للمؤمنين الصالحين، الذين أدوا ما عليهم تجاه شريعة ربهم..، فما أهميتها إذن؟!

أقول: أهميتها أنها تشجع المرء، وتعينه، وترفع من همته، وتطمئنه، وتبشره... وهو مازال حيا يعمل ويجتهد في هذه الدنيا، لعل الله تعالى يدفع بها عنه مكروها، أو يعينه على طاعة، أو يرفع بها درجته في الجنة.

إن مسألة وجود شفعاء في الآخرة، يدخلون من شاءوا الجنة، ويخرجون من شاءوا من النار، من المفاهيم الخاطئة التي كانت منتشرة في عصر الرسالة الخاتمة والموروثة عن أتباع الديانات السابقة، والمنحرفة عن صراط الله المستقيم.

لقد نزل القرآن يبين مسألة "الشفاعة" للناس، بأسلوب يعرفونه ويفهمونه، يكشف لهم زيف وبطلان اعتقادهم أن الشفاعة بين الناس في الدنيا، حيث دار العمل، يمكن أن تنتقل إلى الآخرة، حيث الحساب.

لقد نزل القرآن يبين للناس الأساس الذي يقوم عليه ميزان الحساب في الآخرة، فقال تعالى:

وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [47] الأنبياء

إن يوم القيامة، يوم حساب، وإعلان لنتائج الأعمال، فتدبر:

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ [30] آل عمران

تدبر قوله تعالى: "مُحْضَراً"!!

إن ميزان الحساب في الآخرة غير ميزان الدنيا، وهذا الذي ستجده النفس حاضرا يوم القيامة، هو عملها في الدنيا الذي ستجازى عليه في الآخرة، ولو كان الإنسان يعلم، وهو في الدنيا، بمسألة الشفاعة، ما قال الله تعالى: "تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً"، وقد قال بعدها: "وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ"!!

إن صاحب السيئة، لاشك أنه لن يجد من دون الله من يمحو سيئته يوم القيامة، فهل معنى ذلك أن نستدل بجملة "من دون الله"، على وجود شفعاء في الآخرة؟!

إن السياق القرآني عندما يستخدم جملة "من دون الله" فإنه يخاطب بها الناس في الدنيا، حسب مفهومهم للشفاعة، والوساطة..، وليبين لهم كيف يعمل قانون الحساب في الآخرة، فتدبر:

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً [123] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً [124] النساء

فهل يعقل، بعد أن بيّن الله تعالى للناس كيف سيكون الحساب في الآخرة، وبهذه الضوابط المحكمة، أن يأتي في نفس السياق ليخبرهم أن هناك استثناءات من هذه الضوابط، سيعرفونها عند الحساب في الآخرة؟!

إن الجزاء في الآخرة مرتبط بعمل الدنيا، وهذا هو ميزان الحق والعدل، الذي أقام الله عليه هذا الوجود. إن الجزاء في الآخرة مرتبط بالتزام الإنسان بشريعة ربه فتدبر:

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [13] وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ [14] النساء

إن التحذير من معصية الله ورسوله، في الآيتين، ومن دخول العاصي النار خالدا فيها، قد خاطب الله تعالى به المسلمين في سياق الحديث عن ملة التوحيد والالتزام بأحكام الشريعة، فماذا يعني ذلك؟!

إن ذلك يعني أن ميزان الحساب في الآخرة لا يعرف إلا عمل الإنسان، ومدى موافقته لأحكام الشريعة. فلا يعرف رأفة، ولا "محسوبية"، ولا مجاملة لأحد، فتدبر:

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ [6] فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه [7] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه [8] الزلزلة

إن الإنسان وحده هو المسئول عن عمله، وسيوفيه الله تعالى، على هذا العمل الجزاء الأوفى.

أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [38] وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى [39] وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى [40] ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى [41] النجم

إن الإنسان سينال الجزاء الأوفى، في الآخرة، على ما قدمت يداه في الدنيا، فأين مكان الشفاعة يوم الحساب، يوم الجزاء الأوفى؟!

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً [13] اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [14]

مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً [15] الإسراء

وتدبر قول الله تعالى في سورة الزمر:

وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ [69]

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ [70] الزمر

إن الله تعالى يعلم ما فعله الإنسان، وقد وفاه عز وجل حقه على هذا الأساس، فأين مكان الشفاعة هنا؟! إن الإنسان سيحاسب في الآخرة على مدى التزامه بشريعة ربه فهل إذا عصى ربه، ينتظر حتى يجد من يشفع له في الآخرة؟!

إن باب التوبة مفتوح دوما للمذنبين، مهما بلغت ذنوبهم، ولكنه يغلق مع إغلاق كتاب الإنسان، عند وفاته، ولا يبقى للإنسان إلا عمله، وأن يلقى الله بقلب سليم.

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ [88] إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [89] الشعراء

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [72] الزخرف

إنه على الرغم من بيان القرآن لطبيعة ميزان الحساب في الآخرة، وأن الجزاء على قدر العمل، فإن هناك من لا يزال يستدل بالآيات القرآنية على وجود شفعاء في الآخرة يمكنهم أن يغيروا هذا الجزاء، بعد أن علمه الناس جميعا!!

إن باب الشفاعة الوحيد، الذي أذن الله تعالى به، وصرح به، هو الذي بدأنا به هذا البحث، حيث يقول الله تعالى في سورة النساء:

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً [85] النساء

لقد بينت الآية التي سبقت هذه الآية مباشرة، أنّ كل إنسان مسئول عن عمله وعمّا هو مكلّف بأدائه، ولا يُسأل عن أعمال الآخرين، فقال تعالى:

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً [84] النساء

وحتى لا يفهم قوله تعالى "لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ" على أنه دعوة للعزلة الاجتماعية عقب بعدها بقوله "وَحَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ"، لبيان أن هذه المسئولية تفرض على الإنسان أن يكون دائما آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، فيحرض الناس على فعل الخير وينهاهم عن فعل الشر، فينال نصيباً من ذلك الخير أو من ذلك الشر.

إذن فالشفاعة دعوة لها فاعليتها الاجتماعية في عالمنا المعاصر.

إنها دعوة إلى فعل الخير والتزام جانب الحق.

إنها دعوة إلى نشر مبدأ التكافؤ والتعاون الاجتماعي بين الناس ونبذ الأنانية وحب الذات وتجاهل الآخرين.

إنها دعوة لإنقاذ العصاة قبل الوقوع في المعاصي، والأخذ بيد من وقع إلى باب التوبة حيث الأمان والثقة بالنفس.

إنها دعوة إلى القيام بأعمال الشفاعة والتوجيه وتشجيع الآخرين على فعل الخير على أساس أنّ المحرض على عمل الخير سيناله نصيب من نتائجه دون أن ينقص شيء من نصيب الفاعل الأصلي، وأن المحرض على عمل الشر سيناله نصيب من نتائجه

هو وكل من شاركوا فيه بأية وسيلة من وسائل التحريض المختلفة، دون أن ينقص من أوزارهم شيء.

إنها شفاعة الدعاء والاستغفار والتوبة والعمل الصالح، هذا الباب الذي أذن الله تعالى به، فدخل منه جميع الأنبياء والرسل، وورثه عنهم الصالحون.

تدبر شفاعة نبي الله نوح، عليه السلام، ودعاءه للمؤمنين، حيث يقول الله تعالى:

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً [28] نوح

وها هو رسول الله محمد، عليه السلام، يشفع لأصحابه، الذين عرفهم جيدا، وعلم أنهم ظلموا أنفسهم..، وأنهم استغفروا الله تعالى على ذنوبهم..، يشفع لهم بالاستغفار لعل الله يقبل استغفاره [شفاعته] ويأذن بإنقاذه في الآخرة. فتدبر:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً [64] النساء

ولذلك عندما أراد رسول الله محمد، صلى الله عليه وسلم، أن يشفع للكافرين فاستغفر لهم دون إذن من الله تعالى، نزل القرآن يصحح له ذلك، ويبين عدم قبول الله لهذا الاستغفار، حتى وإن كان المستغفر هو رسول الله شخصيا، فقال تعالى:

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [80] التوبة

والمؤمنون كذلك يشفعون للمؤمنين، يقول تعالى:

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [10] الحشر

إن الله تعالى لم يضعنا أمام نصوص مبهمة لا توصلنا إلى فهم مراده.

إن هناك بابا واحدا للشفاعة يغلق بمجرد موت الإنسان وهو باب التوبة والاستغفار والعمل الصالح، وباب دعاء المؤمن لأخيه المؤمن أن يغفر الله له ذنوبه ويكفر عنه

سيئاته، وباب استغفار الملائكة ونصرتهم لعباد الله الصالحين.

أما في الآخرة، فلا دليل مطلقا على أن أحدا يمكن أن يكون وسيطا بين الله تعالى ومشيئته. ولم نجد في كتاب الله الحكيم أية إشارة تبين وجود وسطاء مع الله عز وجل لتفعيل مشيئته. ومع ذلك فموازين الفضل والرحمة الإلهية نافذة في الآخرة ولكن بيد الله وحده، ونحن في الدنيا لا علم لنا بكيفيتها. يقول الله تعالى:

وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ [156] الأعراف

نعم، إن مشيئة الله نافذة، ولا يسأل عما يفعل، ولكن هذا كله نؤمن به في حدود ما أخبرنا الله تعالى به في كتابه الحكيم. فنحن نؤمن أنه لو أراد سبحانه ألا يخلد أهل الجنة في الجنة، وألا يخلد أهل النار في النار، لفعل. تدبر قوله تعالى:

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ [105]

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ [106] خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [107]

وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ [108]

فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ [109] هود

فمع إيماننا بهذه المشيئة الإلهية المطلقة، الذي قام على أساس علمي مصدره الله تعالى، فإننا لا نتصور أن قرار دخول الجنة، أو النار، يمكن أن يتغير يوم القيامة بشفاعة رسول، أو ملك، أو أحد من الصالحين..، فلا نملك الدليل العلمي قطعي الثبوت والدلالة عن الله تعالى الذي يفيد ذلك.

وخلاصة القول:

أن الشفاعة الحقيقية تكون في الدنيا والآخرة معا، فشفاعة الآخرة ثمرة شفاعة الدنيا. إنها جزاء أخروي على عمل دنيوي. فإذا مات المؤمن مذنبًا، غير مصر على ذنبه، ولم يتب، فإن أمر هذه الذنوب مفوض إلى الله تعالى يوم الحساب، وقبل الإعلان عن مصير الناس: فريق في الجنة وفريق في السعير، فقد يقبل الله شفاعة المستغفرين لهؤلاء المؤمنين المذنبين، ويمحو ذنوبهم.

وأخيرا....

لقد جاءت سورة الشورى ببيان مفصل يؤكد ما توصلنا إليه في هذا البحث من نتائج فلنتدبر هذه المجموعة من الآيات أكثر من مرة حتى نقف على ما تحمله من عطاءات:

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [36]

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ [37]

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [38]

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ [39]

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [40]

وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ [41]

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [42]

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ [43]

وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ [44]

وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ [45]

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ [46]

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ [47] الشورى

صدق الله العظيم

وجوب اتباع النبي الخاتم

إن أصحاب هذا التوجه الفكري، يقتطعون الآيات القرآنية من سياقاتها، لتوظيفها لصالح مذاهبهم..، ولو أنهم فعلوا ما أمرهم الله تعالى به، وتدبروا هذه الآيات من خلال منظومة "الآية القرآنية" المتكاملة، ما وقعوا فيما وقعوا فيه من إشكاليات، تمس أصول الملة والشريعة.

لذلك كان من الضروري أن ندرس هذه الآيات، ونتعرف على السياق القرآني الذي وردت فيه، والسياقات القرآنية الأخرى المتعلقة بموضوعها.

وإن الهدف من هذا البحث، ليس تصنيف الناس إلى مسلم وكافر، ولا اتهام أحد بعينه بالكفر..، فمسألة التكفير هذه ليست من أهداف مشروعي الفكري، الذي يعتبر المسلمين أصلا قد قصروا في تبليغ رسالة ربهم، فلم تصل إلى الناس كآية إلهية يشاهدون فاعليتها وعطاءاتها، فكيف نحكم عليهم وقد وصلت إليهم على غير حقيقتها؟

إن حديث القرآن عن كفر أهل الكتاب، الذين لم يتبعوا الرسول الخاتم، حديث له ضوابطه التي تحكمه، هذا إن أردنا إسقاطه على الواقع المعاصر لنا، وعلى رأس هذه الضوابط: هل وصل الإسلام إلى الناس، كما كان عليه رسول الله وصحبه الكرام؟!

وحيث إن هذا البحث ليس من أهدافه، ولا من مهمته، إسقاط الأحكام على الناس فإن بيانه لمسألة كفر من لم يتبع رسول الله الخاتم، ليس من هذا الإسقاط، وإنما ردا على ما أثير حول هذه المسألة من شبهات، حسب بيان القرآن لها.

لذلك فإن الذين ينتقدون معالجتي لهذه المسألة، عليهم أن يوجهوا نقدهم إلى فهمي أنا للنص القرآني، وليس إلى ذات النص الذي هو من محتوى آية الله القرآنية..، هذا إن كانوا من المسلمين الذين يؤمنون بأن هذا القرآن هو كلام الله يقينا.

فمنهم من يقول:

إن الله تعالى قد شهد بدخول الملل غير المسلمة الجنة من غير أن يشترط اتباع رسوله الخاتم، ودليلهم على ذلك هو هذه الآيات التالية:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [62] البقرة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [69] المائدة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [17] الحج

أقول:

أولا: لقد جاءت الآية [62] من سورة البقرة، وسط سياق يذم بني إسرائيل، الذين قابلوا نعم الله تعالى بالكفر، فاستحقوا الذلة والمسكنة والغضب من الله تعالى، فتدبر:

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ [61]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [62]

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [63]

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ [64]

وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ [65] فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ [66] البقرة

إن سياق هذه الآيات لا يخاطب المعاصرين لموسى، عليه السلام، وإنما يخاطب ذريتهم، المعاصرين لرسول الله محمد، عليه السلام، يذكرهم بمعصية آبائهم لرسولهم

وكفرهم بنعم الله عليهم.

لقد جاء القرآن يطلب منهم أن يتوبوا إلى الله، ويدخلوا، مع الذين آمنوا برسول الله محمد دائرة الإيمان، من منطلق أصول الدين، التي ذكرتها الآية، فإن فعلوا:

"فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ".

فهل يعقل، وسط هذا الغضب الإلهي، أن يكون مفهوم "الآية":

أن عليهم أن يبقوا على دينهم، ولهم الجنة، والأجر العظيم؟!

ثانيا: إذا جئنا إلى الآية [69] من سورة المائدة، وجدناها قد جاءت في هذا السياق:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [68]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [69]

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ [70] المائدة

نلاحظ أيضا، أن "الآية" جاءت في سياق ذم أهل الكتاب، وبيان طغيان وكفر كثير منهم، وتكذيبهم وقتلهم لرسل الله، فجاءت "الآية" تفتح لهم باب التوبة، وتدعوهم إلى اللحاق بركب الإيمان بالرسول الخاتم، عليه السلام، فإن فعلوا:

"فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ".

ثالثا: أما الآية [17] من سورة الحج، فقد جاءت في السياق التالي:

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ [15]

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ [16]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [17]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [18] الحج

لقد اختلف سياق هذه "الآية" عن سياق آيتي البقرة والمائدة.

لقد جاء الحديث، في هذا السياق، عن نصرة الله لأتباع الدين الحق، وأن الفصل بين أهل الأديان المختلفة، يكون في الآخرة. لذلك زاد في هذه الآية ذكر المجوس والمشركين.

ونلاحظ عدم ذكر قوله تعالى: "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً"، في هذا السياق، ذلك أن هذه الشروط كانت مطلوبة في الدنيا، أما الآخرة فدار حساب وجزاء.

والمجوس والمشركون، لا يؤمنون "بالله واليوم الآخر"، ولا يوحدون الله تعالى. فالمجوس يعبدون إلهين: إلها للخير، وإلها للشر!! والمشركون معروفون!!

فآية سورة الحج لا تتحدث عن الشروط الواجب توافرها لدخول المرء في الإسلام ولكن عن الفصل بين الأديان، والملل المختلفة يوم القيامة، فهي خارج موضوع الشبهة محل البحث.

والحقيقة أن هناك عطاءات كثيرة في هذه الآيات الثلاث: [البقرة:62]، [المائدة:69] [الحج:17] لا مجال لمناقشتها في هذا البحث، المَعْني بالرد على شبهة محددة بعينها.

ولكن هناك شبهة، قد أثيرت حولها تساؤلات كثيرة، رأيت أن ألقي بعض الضوء عليها، وهي: من هم [الصابئون]، ولماذا جاءت مرفوعة في آية المائدة، وقد جاءت معطوفة على اسم [إنّ] المنصوب؟!

أما عن معنى [الصابئون]: فإن ذكرهم إلى جانب المؤمنين واليهود والنصارى يدل على أنهم كانوا أتباع أحد الأنبياء، ويدينون بدين سماوي، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ثم

انحرفت ذريتهم عن هذا الدين، كما انحرف الذين هادوا والنصارى..، ومنهم من كان موجودا في عصر الرسالة الخاتمة.

أما لماذا جاءت كلمة [الصابئون] هكذا بالرفع، فبيان ذلك على النحو التالي:

- ففي آية سورة البقرة، يقول الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [62] البقرة

لقد جاءت كلمة [الصابئين] هكذا منصوبة، بما يدل على أن الجملة التي وردت فيها، وهي: "وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ"..، معطوفة على الجملة الأولى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا"..، في سياق موضوع واحد.

لذلك فإن قوله تعالى: "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً"، يعني أن الذين آمنوا من هذه الطوائف الأربع، كل في عصر الرسول الذي أرسل إليهم، "فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ".

وذلك لأن قوله تعالى: "فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ" يبين أنهم استحقوا هذا الأجر ثمرة إيمانهم، واتباعهم للرسل، حسب شرائعهم المنزلة عليهم.

- إن المؤمنين الذين قال عنهم الله تعالى: "فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"، هم الذين أسلموا واتبعوا الرسل، كما جاء في قوله تعالى:

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [111] بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [112] البقرة

ثم تدبر العلاقة بين جملة: "وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"، وبيان الله تعالى لوجوب اتباع الناس جميعا لرسول الله محمد عند بعثته، حيث يقول الله تعالى:

وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [135] قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [136] البقرة

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [137] البقرة

أليس قول الله تعالى: " فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا"، كافيا للرد على القائلين بعدم وجوب إيمان أهل الكتاب برسول الله محمد، وبرسالته الخاتمة؟!

ـ إن الكلمة التي تغير حكم إعرابها، في سياق هذه الآيات، هي كلمة [الصابئون] التي وردت في سياق آية سورة المائدة، فقد جاءت مرفوعة، ما يدل على أن الجملة التي وردت فيها، وهي: "وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى"... جملة مستقلة، غير معطوفة على الجملة الأولى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا"، في قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [69] المائدة

وهذا يجعلنا نفهم الآية على النحو التالي:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا، من المسلمين..، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى..، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً... فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي أن مصير هذه الطوائف الثلاث، في الآخرة، متوقف على التزامهم بهذه الشروط الثلاثة، ولن يُقبل منهم البقاء على مللهم المحرفة، التي خرجت عن أصول الدين، بما اخترعوا من التثليث، وما حرّفوا من الكتب المنزلة.

فتكون الآية جاءت لحث هذه الطوائف الثلاث على الدخول في الإسلام والاستجابة لدعوة الرسول الخاتم، عليه السلام، واتباع شريعته، فإن فعلوا: "فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ

يَحْزَنُونَ". ونلاحظ عدم ورود جملة "فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ" في هذا السياق، لأن هذه الطوائف لم تكن قد دخلت في الإسلام بعد، حتى يكون لها الأجر على ذلك.

إن ما سبق بيانه، كان إلقاء بعض الضوء على معنى الآيات الثلاث، التي يستند إليها البعض في عدم وجوب إيمان أهل الكتاب برسول الله الخاتم، واتباع رسالته.

ويا ليتهم اكتفوا بذلك، ولكنهم ذهبوا يستدلون بآيات أخرى كثيرة، على فهمهم هذا!!

وسأضرب بعض الأمثلة، لبيان مدى خطورة فهم الآيات بمعزل عن سياقها.

1. يقول الله تعالى في سورة المائدة:

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [48]

يقولون: ليس معنى أن القرآن مهيمن على الكتب السابقة، أن من لم يؤمن بمحمد يكون كافرا، فالقرآن لم ينسخ الكتب والشرائع السابقة، وإنما جاء مصدقا لها.

أقول: إن الله تعالى أنزل كتابه الخاتم مهيمنا على الكتب السابقة، وقد بين الله معنى هذه الهيمنة بقوله تعالى:

"فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ"

أي فاحكم بينهم بما أنزل الله في هذا الكتاب الخاتم، ولا تتبع أهواءهم في تحكيم كتبهم، التي حرفوها وبدّلوها.

ولا يعني قوله تعالى: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً" أن يبقى كل إنسان على ملته، ولا يتبع الرسول الجديد..، وإلا فلماذا أرسل الله عيسى، عليه السلام، إلى بني إسرائيل، وهم أتباع موسى، عليه السلام؟!

وهل من لم يتبع عيسى، ومحمدا، عليهما السلام، يظل مسلما على ملة إبراهيم؟!

وهل كون عيسى جاء مصدقا للتوراة، يصبح من حق اليهود التمسك بالتوراة، وعدم

اتباع عيسى، عليه السلام، في رسالته؟!

إن تصديق الرسالات الإلهية بعضها بعضا، ومجيء القرآن مصدقا لما قبله من الرسالات، لا يخرج عن مفهوم قوله تعالى "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً"، الذي يتحدث عن كل نبي في عصره.

ثم بعث الله نبيه الخاتم محمدا، برسالته الخاتمة، إلى الناس كافة، تدعوهم إلى الإيمان به، واتباع رسالته.

وإذا كان بقاء أهل الكتاب على ملتهم، أمرا جائزا شرعا، فلماذا حذر الله المؤمنين أتباع رسوله الخاتم، من اتخاذهم أولياء؟! تدبر هذه الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [51] المائدة

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ [59] المائدة

إن الإيمان بالرسالات الإلهية، وبجميع الرسل، أصل من أصول الإيمان التي يجب أن يقيم المرء عليها إسلامه. ولو أقام أهل الكتاب رسالات الرسل، لكان خيرا لهم ولكنهم لم يقيموها!!

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ [65] وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ [66] المائدة

تدبر قول الله تعالى: "وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ"، إذن، فهم مأمورون باتباع ما أنزله الله تعالى على رسوله الخاتم عليه السلام. ومما يؤكد على أنهم يتبعون أهواءهم وأن القضية ليست قضية حصر الاتباع في الرسول الذي أرسل إليهم قوله تعالى:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ [87] البقرة

ولقد جاءهم رسول الله محمد، فكذبوه، ولولا تعهد الله تعالى بعصمته من الناس وحفظ رسالته، لقتلوه، وحرفوا رسالته.

2. يقول الله تعالى في سورة البينة:

لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ [1]

يقولون: إن هذه الآية تشهد بكفر بعض أهل الكتاب، وليس الكل، والذين كفروا منهم هم الذين ذكرهم القرآن صراحة في الآيات التالية:

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً [155] النساء

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً [156] النساء

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً [157] النساء

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [17] المائدة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ [72] المائدة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [73] المائدة

أقول:

لا خلاف أصلا، على أن الذين كفرهم القرآن هم الذين كفروا برسالة رسول الله محمد، عليه السلام. فإذا كان هؤلاء جزأ من كل، كما يقولون، فإن الجزء الآخر هم الذين أسلموا، وآمنوا، برسول الله محمد، وبرسالته الخاتمة. ذلك أن الخطاب إذا كان لأهل الكتاب، جميعا، فهو لمن أصر على كفرهم منهم، وإذا ذم بعضهم فهذا لا يعني أن بعضهم الآخر مسلمون، مع إصرارهم على عدم إيمانهم واتباعهم للرسول الخاتم.

وإذا مدح القرآن وأثنى على فريق من أهل الكتاب، فهذا الفريق هو الذي ظل متمسكا بشريعة عيسى عليه السلام، وكان في انتظار بعثة الرسول الخاتم المبشر به في كتبهم وهو في طريقه إلى الدخول في الإسلام واتباع الرسول، عليه السلام.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ [6]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [7]

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [8]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [9] الصف

إذن فنحن أمام فريقين من أهل الكتاب:

فريق لم يسلم وهو الذي جاء القرآن يدعوهم إلى الإسلام.

وفريق أسلم، واتبع رسول الله محمدا، وهؤلاء عندما تحدث عنهم القرآن، في عصر الرسالة، كأهل كتاب، كان ذلك لإغراء من لم يسلموا، وتشجيعهم على اللحاق بهؤلاء الذين هم في طريقهم إلى اتباع رسول الله محمد، عليه السلام. فتدبر:

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ [82]

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ [83] وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ [84]

فَأَثَابَهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ [85] وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [86] المائدة

فكيف يقبل الله تعالى بقاء أهل الكتاب على ملة آبائهم، وعدم اتباعهم لرسوله الخاتم عليه السلام، ويمدحهم ويصفهم بالمؤمنين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهو القائل عز وجل:

وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [18] يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنْ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [19] المائدة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ [6] البينة

وإذا كان أهل الكتاب من جموع الناس الموجودين على هذه الأرض، فقد شملهم خطاب الله تعالى للناس بقوله:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً [170]

ويؤكد الله تعالى وجوب إيمان أهل الكتاب بالرسول الخاتم، ويحذرهم من سوء عاقبة مخالفة ذلك، فيقول بعدها:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً [171] النساء

وإذا كان المدافعون عن إسلام وإيمان أهل الكتاب الذين لم يتبعوا رسول الله الخاتم ورسالته، استنادا إلى آياتي سورتي [البقرة والمائدة] السابق ذكرهما مع بداية هذا البحث وإلى فهمهم لمعنى قوله تعالى:

"مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً"

على أساس إيمان أهل الكتاب بالرسل، دون الالتزام باتباع الرسول الخاتم.

فماذا سيقولون في قوله تعالى في الآيات سالفة الذكر، مخاطبا الناس جميعا:

"قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ"، ثم قوله بعدها: "فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ"؟!

إلى من يوجه هذا الخطاب إذن؟!

3. ويقول الله تعالى في سورة آل عمران:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ [110]

يقولون: لقد شهد الله بإيمان فريق من أهل الكتاب، في سياق الحديث عن خيرية أمة الرسول الخاتم، فقال: "مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ" وهم على حالهم كأهل كتاب، فماذا يعني؟!

أقول: إن تدبر السياق القرآني، أداة رئيسة من أدوات فهم القرآن.

لقد كانت الخيرية والأفضلية، قبل بعثة عيسى ومحمد، عليهما السلام، لبني إسرائيل.

تدبر قول الله تعالى في سورة البقرة:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [47]

فلما اعتدوا وعصوا الرسل، وتخلوا عن إيمانهم، وركنوا إلى أنسابهم، ذهبت عنهم هذه الخيرية..، فهل آمنوا بعيسى، عليه السلام، لما جاءهم بالبينات؟!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ [87] البقرة

فكيف فهم هؤلاء، أن الذين آمنوا من أهل الكتاب، وذكرهم الله بقوله: "مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ"، هم الذين ظلوا على إيمانهم بموسى، أو بعيسى، بعد بعثة رسول الله محمد عليهم جميعا أفضل السلام؟!

انظر وتدبر ماذا قال الله بعد آيتين من الآية [110] التي تحدثت عن "خيرية" الأمة:

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ [113] يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ [114]

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ [115] آل عمران

فهل سياق هذه الآية يعني: أن من أهل الكتاب، "مؤمنون"، و"فاسقون"، والمؤمنون

منهم، هم الذين يؤمنون بالكتب المقدسة جميعا، مع احتفاظ كل من اليهود والنصارى باتباع كل منهما لكتابه، وطقوسه، وشعائره؟!

والإجابة على هذا السؤال، في تدبر سياق قوله تعالى:

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [199] آل عمران

وتدبر قوله تعالى: "لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ"، وعلاقته بقوله تعالى في آية سورة البقرة... التي هي موضوع الشبهة:

"فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"

وتدبر قوله تعالى: "لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ"

إن الله تعالى لم يقل: "منهم أمة قائمة"، فيكون هذا خاصا بفريق بعينه...، وإنما قال: "من أهل الكتاب أمة قائمة"، ليشمل ذلك الفريقين: اليهود، والنصارى.

فالمؤمنون من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السلام كانوا قائمين على الدين متمسكين به، فلما بعث الله عيسى، منهم من آمن به، ومنهم من كفر.

وكذلك المؤمنون بعيسى عليه السلام، كانوا قائمين على الدين متمسكين بشريعته فلما بعث الله محمدا، عليه السلام، من النصارى من آمن به، ومنهم من كفر.

4. يقول الله تعالى في سورة الشورى:

شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [13] الشورى

يقولون: لقد وصى الله تعالى باتباع ملة إبراهيم، عليه السلام، ونحن على ملته**!!**

أقول: لقد كان هذا هو زعم كل من اليهود والنصارى، أن إبراهيم، عليه السلام كان منهم، وجادلوا رسول الله محمدا، عليه السلام، في ذلك.

والحقيقة أن "اليهودية" نشأت بعد نزول التوراة، والنصرانية نشأت بعد نزول الإنجيل وبين إبراهيم وموسى، عليهما السلام، ألف سنة، وبين إبراهيم وعيسى عليهما السلام ألفان، فكيف يكون إبراهيم، عليه السلام، يهوديا أو نصرانيا؟! فتدبر:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [64]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [65] هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [66]

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ [67]

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [68] وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [69]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ [70]

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [71]

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [72] وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [73]

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [74] آل عمران

ثم كيف نقبل منطقهم هذا، وقولهم إنهم على ملة إبراهيم، عليه السلام، في الوقت

الذي يكفر فيه بعضهم بعضا!!

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [111] البقرة

لقد قالت اليهود "لن يدخل الجنة إلا من كان هودا"، وقالت النصارى: "لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى" فجمع القرآن بين قوليهما على طريقة الإيجاز، فكلاهما لا يشك في نجاة نفسه، ولا يشك في ضلال الآخر!!

فأجابهم الله تعالى عليهما بقوله:

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [112] البقرة

إن رمي اليهود والنصارى المخالفين لهما بالضلال، ثم رمي كل منهما الآخر بالضلال..، خير شاهد على بطلان دعوى اتباعهما لملة إبراهيم، عليه السلام، فتدبر:

وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [113] البقرة

وتدبر العلاقة بين قوله تعالى، في الآية [112]:

"فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"، وإسلام الوجه لله تعالى.

وقوله تعالى في آية [سورة البقرة] موضوع الشبهة:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [62] البقرة

فكيف فهموا آية [سورة البقرة] على أنها بشرى لأهل الكتاب، بقبول إيمانهم، من غير اتباعهم لرسول الله محمد، عليه السلام، استنادا إلى أن الله تعالى قد ساوى بين إيمان الذين هادوا، والنصارى..، وإيمان الذين أسلموا، واتبعوا الرسول الخاتم؟!

لقد سبق هذه البشرى، الآية [112]، قوله تعالى: "بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ..."، فهل فهم، أصحاب هذه الشبهة، معنى إسلام الوجه لله تعالى؟!

إن إسلام الوجه لله، هو التسليم المطلق، وشدة الامتثال، لأوامره عز وجل. إذن فالقضية قضية إقامة الدليل والبرهان على الطاعة والامتثال لأوامر الله!!

لذلك قال تعالى، ردا على ادعاءاتهم السابقة:

"قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ"

وأكرر ما سبق أن قلته في بداية الرد على هذه الشبهة، أني أنقل بيان القرآن الكريم وآيات الذكر الحكيم، في الرد على هذه الشبهات، ولا أسقط ما أشار إليه هذا البيان من أحكام، على أحد بعينه، ولا على فئة أو طائفة بعينها.

إنني أمام ما يوجه من اتهامات إلى رسول الله محمد، عليه السلام، أو إلى رسالته أو إلى أحكام شريعته، فأنا لا أملك، حسب منهجي الذي ألزمت نفسي به، للرد على هذه الاتهامات، أو على الفهم غير الصحيح لآيات الذكر الحكيم..، لا أملك غير القرآن مرجعا إلهيا، وما حملته "منظومة التواصل المعرفي" من بيان لما أجمله القرآن من أحكام. وقد التزمت بما ألزمت نفسي به.

لذلك، فإن على الذين يخالفونني الرأي، أن يبينوا لي، أين هو الخلل، في فهمي لما عرضته من آيات، كانت هي الدليل على بطلان توجههم الفكري.

خلاصة الدراسة

عند تدبرنا القرآن، علينا أن نعلم أننا أمام "آية قرآنية"، وليس فقط كتابا إلهيا..، آية تحمل حجيتها وأدوات فهمها في ذاتها، ودون الوقوف على هذه الأدوات لن نستطيع أن نتعرف فاعليتها في واقعنا المعاصر، ولا أن نقيم الشهادة على الناس، على وجهها الصحيح، كما أمرنا الله تعالى.

إن معظم المسلمين يقرؤون القرآن ولا يتدبرونه، وخير شاهد على ذلك واقع حالهم الذي لا يخفى على ذي بصيرة. إنهم يفرحون ويسعدون عندما يحفظ أولادهم سور القرآن الحكيم، ويحصلون على الجوائز وشهادات التقدير..، فإذا سألتهم، أو سألت شيوخهم عن معنى آية من آيات هذا القرآن الكريم، أحالوك إلى أهل التفسير فإذا ذهبت إلى معظم أمهات كتب التفسير، لم تجد إلا فهما مذهبيا ثابتا متجمدا قائما على التراث الديني لأئمة الفرقة أو المذهب الذي ولد فيه مؤلف الكتاب!!

أليس إخراج الناس من الظلمات إلى النور، هو "السنة النبوية"، الواجب على المسلمين كافة التمسك بها، والعمل على تفعيلها في حياتهم، ليكونوا قدوة لغيرهم؟!

الحقيقة أننا لم نُقِم فهمنا لدين الله تعالى على التدبر، والفهم الواعي، لآيات ذكره الحكيم، لذلك سيبقى حال المسلمين على ما هو عليه، من تخلف وتخاصم، وفرقة... وسيزداد الفساد في الأرض، بصوره المختلفة..، مهما وضعت له الخطط والبرامج العلاجية العالمية، ومهما كان حجم الأموال التي خصصت لذلك..، لأن إدارة الأزمات العالمية، وسبل علاجها، لا يملكها إلا الله تعالى، فهو القائل عز وجل:

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [78] الشعراء

أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [14] الملك

الفهرس

هذا الكتاب

لقد كان من السهل أن يخترق الشيطان صفوف المسلمين، بعد تفرقهم ويبعدهم عن "تدبر القرآن"، كآية تتحرك بين الناس على مر العصور، فغاب المتحدث الرسمي باسم الإسلام عن العالم، وظهر المتحدث الرسمي باسم الفرقة، أو المذهب الإسلامي.

إن الإشكالية أكبر من مجرد تدبر جملة أو كلمة قرآنية، أو البحث عن وجوه البلاغة فيها، أو الإشارات العلمية، لأن العالم في أشد حاجة إلى إعادة تدبر المسلمين للقرآن، بأسلوب منهجي ومعرفي يعتمد على فاعلية نصوصه كـ "آية" معاصرة للعالم أجمع، وليس للمسلمين فقط، واستلهام نورها الهادي إلى صراط الله المستقيم.

إن معظم المسلمين لا يعرفون كيف يُفعّلون "الآية القرآنية" لإخراج أنفسهم من ظلمات التخلف والتخاصم والتفرق..، فضلا عن إخراج غيرهم، والسبب:

أنهم يقرؤون القرآن ليل نهار لا يتدبرونه، فكيف يخرجون أنفسهم من تلك الظلمات، وهم يصرون على الفهم الخاطئ لكثير من آيات الذكر الحكيم؟!

إن معظم المسلمين لا يعلمون أن "الآية القرآنية" منظومة معرفية تتفاعل نصوصها مع فطرة الإنسان، ومع الكون من حوله، ودون الوقوف على هذا التفاعل لن يؤتي التدبر ثماره.

فأين هي البرامج، والمناهج التربوية القرآنية، التي تدرس في البيوت قبل المساجد لتربط قلوب الناس بكلام خالقهم..، فتلين، وتخشع..، فتبصر الحق وتتبعه؟!

الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [1] إبراهيم

د. محمد السعيد مشتهري

www.feqhelquran.com